شرح
القواعد الأربع

الشيخ: صالح بن عبد العزيز سندي

شرح مدينة الرياض في مجلسين (العصر والمغرب)

بتأريخ 6 جمادى الأولى 1445

في جامع الشيخ محمد بن حمد بن حسين آل الشيخ

الشيخ لم يراجع التفريغ

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله صلى الله وعليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، أمَّا بعد:

فهذا المجلس هو في مدارسة لمَتْن عظيم، من متون علماء أهل السنة والجماعة في باب التوحيد، أَلَا وهو (**القواعد الأربع**) للإمام المجدد -إمام الدعوة الإصلاحية، الشيخ: محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ ٱللَّهُ رحمة واسعة-.

وهذا الدرس -كما تعلمون- وقته ضيّق، فأتجاوز كثيرًا من المسائل الفرعية لأَصِل إلى المقصود، وهو فهْم مُراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بهذه القواعد التي ذكرها.

وهذا المتن من أَهَمِّ المتون في فهْم توحيد العبادة، ومعرفة ضلال المخالفين، وكيفية الرد عليهم.

هذا المتن متنٌ نافع جدًّا، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ كرَّر هذه المسائل الأربع في عدد من فتاويه ورسائله، وهذه التي بين أيدينا هي التي اشتُهرت وطبعت، وإلا فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ له كلام نحو هذه الرسالة في بيان هذه القواعد الأربع.

وتأليف الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ لها كان نابعًا عن رغبة في إفهام التوحيد، وكيفية الرد على المخالفين، والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عالِم داعية، فهو يعرف مداخل المخالفين، وأن هناك شبهًا يُلَبِّسُون بها، فأراد بعد أنْ قرّر التوحيد ومسائله إجمالًا وتفصيلًا في مؤلفات ورسائل عديدة،

أراد أن يوضح إشكالات يُشَبِّه بها ويُلَبِّس بها أعداء التوحيد، حتى يكون الموحد على معرفة ودراية بها، فالشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ما كتب هذه الرسالة عن تَرَفٍ عِلمي، وإنما عن حاجة ماسة، وجد أنه لابد من التنبيه على هذه المسائل حتى يتضح التوحيد، وحتى لا يُلبِّس الملبسون على أهل التوحيد.

ولذلك سيأتي معنا -إن شاء الله- في أن كل قاعدة من القواعد التي ذكرها الشيخ؛ أراد أن يرد بهذه القاعدة على شُبهة يُلبِّس بها مَن يُلَبِّس، فيقول لك: تنبَّه! فهذا الذي يذكرونه باطل، والدليل كذا وكذا.

فهذه الرسالة رسالة عظيمة، وأحسن من ينتفع بها هو الذي يدرسها بعد أن يفهم التوحيد، كل من يقرأ هذه الرسالة سيستفيد إن شاء الله، لكن الفائدة المَرجُوَّة والفائدة الكبرى -فيما أظن- ستكون لمن دَرَسَ هذه الرسالة بعد أن يكون قد فهم التوحيد، يعني دَرَس ثلاثة الأصول، درس كتاب التوحيد، الآن فهم التوحيد، يبقى الآن أن يكون على دراية بكيفية الجواب عما يُلبِّس به أعداء الله، لا تظنَّنَّ أن المسألة سهلة، أعداء الله جل وعلا لهم شُبه، ولهم علوم، ولهم تلبيسات كثيرة، فالأمر عظيم، لذلك تحتاج إلى أن تعرف التوحيد والحق بتفاصيله، وأن تعرف الشرك والباطل بتفاصيله أيضًا، حتى يُمكِنك الردُّ عليهم، وبهذا يتخذ الإنسان سبب النجاة، أن يعلم الحق بتفاصيله فيلتزمه، وأن يعلم الباطل بتفاصيله فيجتنبه، وبالتالي لا تلتبس عليه الأمور، وإذا كان هناك حاجة ماسة لدراسة هذه الرسالة في السابق، فنحن اليوم أحوج ما نكون إلى هذه الدراسة، نظرًا لأن هذه الشُّبه هي اليوم أكثر انتشارًا وأكثر تلبيسًا، وأُحسِن من قِبل أعداء التوحيد زخرفتُها، ففَهْمُها وإتقانها من الأهمية بما كان لمن

أراد أن يَسلَم توحيده، ويكون على سبيل نجاة بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثَ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ.

قال الشّارح وفّقه الله:

بدأ المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ كما هي عاده في كثير من رسائله رَحِمَهُ اللَّهُ بالدعاء لقارئ هذه الرسالة.

فقال: (**أَسْأَلُ اللهَ الْكَرِيمَ رَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ**)، توسَّل إلى الله جل وعلا بكونه سبحانه الكريم، وبربوبيته للعرش العظيم، وأنه رب العرش العظيم، (**أَنْ يَتَوَلاكَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَأَنْ يَجْعَلَكَ مُبَارَكًا أَيْنَمَا كُنْتَ**) ومن فاز بهذا فاز بحظ عظيم، (**وَأَنْ يَجْعَلَكَ مِمَّنْ إِذَا أُعْطِيَ شَكَرَ، وَإِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ، وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ، فَإِنَّ هَؤُلاءِ الثَّلاثُ عُنْوَانُ السَّعَادَةِ**).

وهذه المقدمة كأنها مُستفادَة من مقدمة ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ لكتابه «الوابل الصيب»، فإن الشيخ -كما تعلمون- كان عظيم العناية بكتب الإمامين الجليلين: ابن تيمية، وابن القيم رحمهم الله.

وهذه الأمور الثلاثة التي ذكرها هي فعلًا عنوان السعادة، وأَمَارَة التوفيق، وهي أنه إذا أُعطي شكَر.

والشكر على النعمة يتحقق بثلاثة أركان:

الأول: اعتراف قلبي.

الثاني: ثناء لساني.

الثالث: عمل بالجوارح في هذه النعمة في مرضاة الله جل وعلا.

وقوله: (إِذَا ابْتُلِيَ صَبَرَ).

الصبر على البلاء: هو كَفُّ القلب واللسان والجوارح عما لا ينبغي عند نزول المصيبة، من كان كذلك فإنه يكون قد حقق الصبر على البلاء.

وقوله: (وَإِذَا أَذْنَبَ اسْتَغْفَرَ).

الاستغفار: سؤال المغفرة، وطلب المغفرة، والله جل وعلا هو الذي يغفر الذنوب، ﴿وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللهُ﴾ [آل عمران:135].

والاستغفار الكامل هو الذي يَتواطأ عليه اللسان والقلب، مع العزم على عدم العَود إلى الذنب والندم عليه، فالاستغفار الكامل الذي وُعِد بمغفرة الذنوب لمن أتى به، وهو أن يكون قد استغفر، وهو في الحقيقة مرادف لمعنى التوبة.

أمَّا إذا جُمعا معًا في نص واحد، فيُحمل الاستغفار على ما في اللسان، وتُحمل التوبة على ما في القلب.

أمَّا الاستغفار الذي يكون باللسان فحسب، ولكن لا يُجامِعُه ندمٌ ولا عزمٌ على العَود؛ فإن هذا سؤال ودعاء، لكن لا يترتب عليه الوعد الذي جاء للمستغفرين، والدعاء بكل حال نافعٌ لمن دعا.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

اعْلَمْ -أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ- أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ؛ وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:56].

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ؛ فَاعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلاَّ مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ لا تُسَمَّى صَلاَةً إِلاَّ مَعَ الطَّهَارَةِ، فإذا دَخَلَ الشِّركُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ [سورة التوبة:17].

قال الشّارح وفّقه الله:

قوله: (**اعْلَمْ**) هذه الكلمة يأتي بها الشيخ وغيره من أهل العلم للتنبيه على أهمية ما سيأتي بعدها.

ولا يزال الشيخ يَسلُك الجادةَ المعروفة عنده، وهي الدعاء للقارئ، ومعلوم ما في هذا الأسلوب من استمالة قلْبه، وإشعاره بأن هذا الذي كَتَب هذه الرسالة يريد الخير، ويريد النُّصح، ويحب الهداية للناس.

قوله: (**أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**) هذه هي الحنيفية، وهذه هي مِلَّة إبراهيم، **والملة**: هي الدين، هذا الدين الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام، وهو ما أُمر باتباعه نبينا محمدٌ ﷺ، **﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل:123]، وهو ما أُمرنا نحن معشر هذه الأمة باتباعه، **﴿قُلْ صَدَقَ اللهُ فَاتَّبِعُوا**

﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران:95]، وما أُمِر النبي ﷺ باتباع أحد ملة أحد من الأنبياء سِوى إبراهيمَ عليه السلام.

وإبراهيم عليه السلام شأنه شأن عظيم، فهو خير البشر، وأفضل الناس على الإطلاق بعد نبينا محمدٍ ﷺ، هو خليل الله، اتخذه الله خليلًا، وكذلك اتخذ نبينا محمدًا ﷺ خليلًا.

إبراهيم عليه السلام هو الذي جاء ربه بقلب سَليم.

إبراهيم عليه السلام هو الذي قال له ربه: أَسْلِم، ﴿قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة:131].

هو الذي كان قلبُه للرحمن، وكان ولدُه للقُربان، وكان مالُه للضيفان، فشأنُ إبراهيم شأنٌ عظيم، ومِلَّته هي حقيقة التوحيد، وهي زُبدة الرسالة، ولا يَميل عنها ويرغب إلا من سَفِهَ نَفسَه.

فهذه المِلَّة العظيمة التي أُمرنا باتباعها بيَّنها الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)، أن يكون قلبك وجَوارحك لله رب العالمين، تنبعث كل دوافع قلبك، وأن يكون منتهى قصدك لله جل وعلا، وأن تحقق المحبة والخوف والرجاء والرغبة والقصد لله رب العالمين، فتكون لله كما تكون بالله، هذه هي حقيقة الملة الحنيفية.

وهذه الملة هي التي أمر الله جل وعلا بها جميع الناس، مِن أولهم إلى آخرهم، كل الناس مأمورون بهذه الملة، وإخلاص التوحيد لله جل وعلا.

قوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ)، وهذه هي الحكمة التي خلق الله جل وعلا الخلق لها، (﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾).

قوله: (**فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ: فَاعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلاَّ مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ لا تُسَمَّى صَلاَةً إِلاَّ مَعَ الطَّهَارَةِ**)، يريد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن العبادة المُعتدَّ بها، العبادة التي تنفعك، وحُقَّ أن تسمى عبادة، هي التي تقترن بالتوحيد، بمعنى: أن تكون عبادةً يُخلِص فيها العابد لله جل وعلا، هذه هي التي تسمى عبادة حقًّا.

أمَّا عبادة لا تقترن بالتوحيد، وإنما يُشرك فيها الإنسان مع الله جل وعلا؛ فهذه عبادة صُورية، صورة العبادة موجودة، ولكن حقيقتها مفقودة، وبالتالي فإنها لا تنفع صاحبها، بل تضره ضررًا عظيمًا.

وهذه في الحقيقة قاعدة، هذه القواعد الأربع تشتمل على قواعد، فينبغي عليك أن تقتنصها وأن تحفظها، أن تكون دائمًا حاضرة في ذهنك.

منها هذه الجملة، وهي: (**أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوحِيد**).

ثم بيّن كيف يُقنعك بذلك بأن ذكر لك مثالًا مُسلَّمًا، يُسلِّم به كل المسلمين.

قوله: (**كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ لا تُسَمَّى صَلاَةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ**)، وجه هذه المقارنة بين العبادة والصلاة هي أنه كما يُشترط في الصلاة حتى تكون نافعة، وحتى تكون صلاة بحق: أن يكون الإنسان متطهرًا، قد جمع إلى صلاته بالطهارة، أو أن يكون في صلاته قد حقَّق الطهارة.

كذلك الأمر في التوحيد، كذلك الأمر في العبادة، لا يمكن أن يعتد بعبادة لا يكون الإنسان فيها موحدًا، (**كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ لا تُسَمَّى صَلاَةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ**)، هذا وجه المقارنة بين الأمرين.

وعليه فإن صلاةً قد أحدَث فيها صاحبها، أو أحدَث قبل الدخول فيها؛ فإنها بكل حال لا

تنفع، حتى ولو كان قد أطالها، وحتى لو كان قد بكى فيها، وحتى لو كان قد سجد وقنَتَ؛ كل ذلك لا ينفعه، لماذا؟ لأن شرط القبول غير متوفر.

كذلك الأمر في العبادة، مهما كثرت، ومهما طال زمانها فإنها لا تنفع صاحبها مالم يكن الإنسان فيها موحدًا.

مع ملاحظة فرقين تبين لك أن شأن التوحيد مع العبادة أعظم من شأن الطهارة مع الصلاة:

أولًا: أن الصلاة التي لا يصحبها طهارة فإنها تكون لَغْوًا، اللهمَّ إلا في حق من كان مستهزئًا، مستخفًا بشأنها، فهذا له شأن آخر، لكن لو قُدِّر أن إنسانًا صلى صلاة ثم تبين له أنه ما كان متطهرًا أثناءها، فإننا نقول: هذا الفعل لَغوٌ، ولا يضره، لكن لا تزال ذمته مشغولة بهذه الصلاة، وعليه أن يُعيد هذه الصلاة.

لكن الشأن في العبادة مع الحدث الذي يفسدها، وهو الشرك، شأن أعظم، ويا لَيت أن هذه العبادة التي أشرك فيها صاحبها يكون فعله فيها لغوًا، لا يقدم فعلها ولا يؤخر.

الحقيقة: أن من عبد عبادة أشرك فيها مع الله جل وعلا فإنه يكون قد وقع في أمر عظيم، يكون قد قارف الجريمة الكبرى، التي هي أشنع الخطايا وأعظم الجرائم حالًا ومآلًا، فشأن التوحيد مع العبادة أعظم.

والأمر الآخر: أن الأمر في الصلاة يرجع إلى أن كل صلاة مستقلة بنفسها، فإذا صلى صلاة حقق فيها الطهارة، كانت مقبولة وبرئت ذمته، وإذا صلى صلاة ليس فيها طهارة، أو لم يكن صاحبها فيها متطهرًا فإن هذه هي التي تفسد، وما سواها يبقى صحيحًا.

لكن في شأن العبادة الأمر مختلف، كل العبادات بجميع أنواعها بمَثابة الصلاة الواحدة.

وعليه فلَو أنّ إنسانًا عبَد عبادةً حقق فيها التوحيد، ولكنه في أُخرى أشرك، فما الحكم؟ كلُّ العبادات حابطة إذا اتصلت بالموت على الشرك، ولا ينفعه فيها شيء قد أخلص فيه لله سبحانه وتعالى.

إذن شأن التوحيد مع العبادة أعظم وأعظم.

والمقصود: أنَّ التوحيد هو الطهارة والزكاة، بل هو أعظم طهارة وزكاة، ولذلك الله جل وعلا يقول: ﴿**وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ * الَّذِينَ لا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ ..**﴾ [فصلت:6-7]، قال ابن عباس رضي الله عنهما: (هي شهادة أن لا إله إلا الله)، لا إله إلا الله هي الكلمة المعبرة عن التوحيد، هذه هي الزكاة حقًا.

ولذلك موسى عليه السلام لما بعثه الله جل وعلا إلى فرعون ليدعو، قال: ﴿**فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزَكَّى**﴾ [النازعات:18]، هذا هو الذي يتزكى به الإنسان، أن يوحد الله سبحانه وتعالى.

في مقابل أن الشرك بالله جل وعلا أشنع حدث وأعظم نجاسة، أَقذَر شيء من الأحداث على الإطلاق هو الشرك بالله جل وعلا، ولذلك كان المُتَلَبِّس به نجسًا، بل هو النجس على الحقيقة، ﴿**إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ**﴾ [التوبة:28]، ونجاستهم نجاسة حقيقية، ونجاسة عينية، فلا يمكن أن يتطهروا أبدًا إلا بالتوبة إلى الله جل وعلا من هذا الشرك.

فمَن كان ذا نجاسة عينية فإنه لا يَطهر بشيء، لو أتيت بكلب -والكلب نجاسته عينية- وصبَبْتَ عليه بحار الأرض، هل يطهر؟ لا يطهر؛ لأن نجاسته عَينية.

كذلك هذا المشرك -عياذًا بالله- نجاسته نجاسة عينية، والجريمة التي وقع فيها جريمة عظيمة جدًا قد بلَغَت الغاية، ولذلك كان عذابه لا مُنتهى له، سبحان الله العظيم.

المشرك لما كان خُبثه وكانت نجاسته نجاسة لا مُنتهى لها كان عذابه لا منتهى له، ولذلك يُعذَّب في النار -نسأل الله العافية والسلامة- أَبَدَ الآبدين، عذابًا لا يمكن أن ينتهي، وكل ما مرَّت عليه مدة فيها نوع من أنواع العذاب تَجدَّد له في المدة التي بعدها لون آخر من العذاب وهَلُمَّ جَرًّا، إلى متى؟ إلى ما لا نهاية. نسأل الله السلامة والعافية

هذا يدلك خطورته، وعِظم شأنه.

المقصودُ: أنّ عبادة لا توحيد فيها عبادة لا تنفع صاحبها، ولذلك لا يوصف بأنه عابد لله إلا الموحد، يمكن أن يضاف الفعل إلى المشرك، ربما ويجوز أن يعبد المشرك عبادة معينة يخلص فيها لله جل وعلا، ﴿**فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ**﴾ [مريم:49]، إذن هم كانوا يعبدون الله، ولكن يعبدون غيره معه. إذن يمكن للكافر المشرك أن يعبد الله، ولكنه لا يوصف بأنه عابد لله، ولذلك يقول جل وعلا: ﴿**قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ * وَلا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ**﴾ [الكافرون:1- 3]، نُفي عنهم ههنا الوصف، وأنهم عابدون لله، فلا يُقال لأحد إنه عابد لله، أو من عُبّاد الله، إلا من كان موحدًا، لا ينال هذا الوصف بأنه عابد لله، إلا من كان على التوحيد، فالارتباط ارتباط وثيق بين التوحيد والعبادة، ولذلك يقال لمن لَم يُوحِّد: لا تَتعَب، مَن لم يُوحِّد ويُخلِص لله جل وعلا لا يُتعِب نفسه؛ لأنه لن يصل إلى شيء، ولن يثمر له عمله شيئًا.

والشرك والتوحيد نقيضان، لا يجتمعان ولا يرتفعان، مَن لم يوحد كان مشركًا ولابد، ومن كان مشركًا لم يكن موحدًا قطعًا.

والدليل على أن العبادة لا تنفع صاحبها ولا يُعتدّ بها ما لم يكن الإنسان فيها موحدًا لله

جل وعلا، **أدلة كثيرة**، ومن ذلك: قول الله جل وعلا في الحديث القدسي الذي خرّجه مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في الصحيح، يقول سبحانه: «**أنا أغنى الشركاءِ عن الشرك، مَن عَمِلَ عملًا أشرك فيه معيَ غَيري تَرَكْتُه وَشِرْكَهُ**»، وهذا يُنبئُ عن أن عمله كان فاسدًا حابطًا لا يُعتد به.

وكذلك يقول ﷺ فيما خرجه النسائي وغيره، قال ﷺ: «**إنَّ الله لا يَقبل مِن العمل إلا ما كان له خالصًا، وابْتُغِي وَجْهُه**».

العبادةُ التي لا إخلاص فيها ولا توحيد لا يقبلها الله سبحانه، كما أخبر بهذا نبينا محمد ﷺ.

قوله: (**اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ: أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ**)، مِلَّة التوحيد قلنا هي: الحنيفية، والحنيفية هي التوحيد.

وإبراهيمُ عليه السلام كان حنيفًا، كما بيّن الله سبحانه وتعالى.

و(**الحَنَفُ**) ذُكرت فيه من جهة اللغة أقوال، **أشهرها ثلاثة أقوال**:

القول الأول: أن الحَنَف هو الميل، ولذلك يقال لمن في قَدَمِه مَيل، يعني: أصابعه يقابل بعضها بعضًا في قَدَمِه، يقال له: أَحْنَف.

والأَحْنَفُ في الاصطلاح: هو الذي مَالَ عن الضلالة إلى الاستقامة، ويقابله الجَنَف، فالجَنَف: هو الميل عن الاستقامة إلى الضلالة، ﴿**فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا**﴾ [البقرة:182].

ووجْهُ تسمية إبراهيم عليه السلام بأنه كان حنيفًا: أنه مال عن دين قومه -الذي هو الشرك- إلى التوحيد، فمال عن الضلالة إلى الاستقامة، وكان عليه السلام حنيفًا.

القول الثاني: أن الحَنَف هو الاستقامة، وإبراهيم عليه السلام كان حنيفًا، يعني: مستقيمًا على الحق والتوحيد.

وقال هؤلاء: إنه إنما قيل لمن في قدمه مَيل (إنه أَحْنَف) من باب التفاؤل، كما يُقال للَّدِيغ: سَلِيم، وكما يُقال للصحراء: مَفازَة، من باب التفاؤل.

ولا شكَّ أنّ إبراهيم عليه السلام كان على جادّةِ الحقِّ، مستقيمًا عليها.

القول الثالث: أن الحَنَف هو الإقبال على الشيء، وهذا يستلزم الإعراض عن غيره.

وهذا ما كان من إبراهيم عليه السلام، فإنه كان مقبلًا على ربه، وكان ذاهبًا إلى ربه، ﴿**وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ**﴾ [الصافات:99]، وفي مقابل هذا كان معرضًا عن كل ما سِوى الله سبحانه وتعالى متبرئًا منهم، ﴿**فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:77].

قوله: (**أَنْ تَعْبُدَ اللهَ، وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**)، ﴿**قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ**﴾ [الزمر:11].

قوله:(**وَبِذَالِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ**)، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾ [البقرة:21]، (**وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ اللهَ خَلَقَكَ لِعِبَادَتِهِ: فَاعْلَمْ أَنَّ العِبَادَةَ لا تُسَمَّى عِبَادَةً إِلَّا مَعَ التَّوحِيدِ، كَمَا أَنَّ الصَّلاَةَ لا تُسَمَّى صَلاَةً إِلَّا مَعَ الطَّهَارَةِ، فإذا دَخَلَ الشِّركُ فِي العِبَادَةِ فَسَدَتْ، كَالحَدَثِ إِذَا دَخَلَ فِي الطَّهَارَةِ**) يعني: فإنه يفسد العبادة، يفسد الطهارة ثم يفسد العبادة، (**كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ﴾**).

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّرْكَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا وَأَحْبَطَ العَمَلَ، وصَارَ صَاحِبُهُ مِنْ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ، عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ، لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ وَهِيَ: الشِّرْكُ باللهِ الَّذِي قَالَ اللهُ تَعَالَى فِيْهِ: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء:48]، وذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ ذَكَرَهَا اللهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ.

قال الشّارح وفّقه الله:

يقول الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا عرفت أهمية هذا الموضوع وخطره، وشأنه البالغ، نحن -يا إخوتاه- نتكلم في شيء عظيم جدًا، هذا الموضوع الذي نتباحث فيه هو أهمّ الموضوعات على الإطلاق، نحن نتحدث في الشيء الذي لأجله خلقك الله سبحانه وتعالى، فأيُّ موضوع أعظم من هذا الموضوع؟ وأي شأن أبلغ من هذا الشأن؟ فالمسألة مسألة عظيمة جدًا، كلُّ أحد لابد أن يفهم هذا الموضوع، العالِم، والمتعلم، والجاهل، والكبير، والصغير، والذكر، والأنثى، كل أحد لابد أن يستوعب هذا الموضوع استيعابًا صحيحًا؛ لأنّ النّجاة معلقة به، والخاسرة -يا إخوتاه- خسارة لا يمكن تعويضها، من مات على هذا الشرك الذي يتحدث الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنه فإنه خسر الخسارة التي لا يمكن أن تُستقال، ولا يمكن التعويض. فأيُّ شأن أعظم من هذا الشأن، ولذلك قال الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ)، لابد أن تعرف ذلك، لابد أن تستوعب هذه القضية، لابد أن تكون منك على ذُكْر، لابد أن

تكون نَصْب عينيك، وموضع اهتمامك، لابد أن تستوعب هذا استيعابًا جيدًا، وأن تقتنع به وأن تستيقن به أنه لا نجاة إلا بالتوحيد، وأن الهلاك والخسارة معلَّقة بالشرك بالله جلّ وعلا، فالعلم سبب للنجاة بتوفيق الله سبحانه وتعالى.

قوله: (فَإِذَا عَرَفْتَ أَنَّ الشِّركَ إِذَا خَالَطَ العِبَادَةَ أَفْسَدَهَا، وَأَحْبَطَ العَمَلَ، وصَارَ صَاحِبُهُ مِنْ الخَالِدِينَ فِي النَّارِ: عَرَفْتَ أَنَّ أَهَمَّ مَا عَلَيْكَ مَعْرِفَةُ ذَلِكَ).

أشنع الأمور حالًا ومآلًا هو الشرك، والسبب أمران:

أوّلًا: أنه أعظم الذنوب.

ثانيًا: أن عقوبته أعظم العقوبات.

أما كونه أعظم الذنوب فيرجع ذلك إلى ثلاثة أسباب:

أولًا: أن الشرك بالله جل وعلا فيه تَنقُّص لعظمة الله سبحانه وتعالى، المشرك مُنتَقِص لعظمة الله جل وعلا، فما أحراه أن يكون قد أتى بأعظم الذنوب وأشنعها، فالله سبحانه وتعالى حقُّه هو العبادة، أن يُعبد فلا يُشرك به شيئًا، هذه حقه على العباد سبحانه وتعالى، فالمشرك -عياذًا بالله- استخف بهذا الحق، يكون قد أتى بشيء عظيم.

أَرَأَيت لو أن هناك سلطانًا قويًا، وله سطوة وشأن، ثم جاء إنسان فتجاوز حقه، أخذ شيئًا من ماله، أو من حَلاله، ولم يُبالِ به، ألا يكون قد أتى جريمة عظيمة تغضب هذا السلطان؟ لأنه في الحقيقة مُستَخِف به، ومنتقص من مكانته، فالشأن في الشرك أعظم، اللهُ جل وعلا مَلِك الملوك، وهذا حقه على عباده، ثم يأتي إنسان ضعيف، ليس له من الأمر شيء، ثم يتجاوز هذا الحق ويستخف به، هذا لا شكَّ يكون قد أتى بجريمة عظيمة.

ثانيًا: أن الشرك معاندة لله سبحانه وتعالى؛ لأنّ الله إنما خلقك لتكون موحدًا، الله خلقك لكي تعبده مخلصًا العبادة له، فجاء المشرك بضد ذلك وهو الشرك، ألا يكون هذا معاندة لله سبحانه وتعالى؟ يعني: أنت تأتي بأجير لكي يصلح لك جدارًا، فجاء هذا الأجير وهدم الجدار، هذا في الحقيقة معاند، هذا ليس مجرد عاصٍ، هذا عصيان مبالغ فيه، فيه معاندة.

ثالثًا: أنّ الشرك أعظم الظلم، **والظلم**: وضْع الشيء في غير موضعه، ولذلك سَمى الله سبحانه وتعالى الشرك ظلمًا: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ [لقمان:13]، وذلك أن المشرك وضَع العبادة في غير موضعها، فكان في الحقيقة ظالمًا.

فهذه الأمور الثلاثة تكشف لك شيئًا عن خطر الشرك وشناعته، وأنه حقًا أعظم الذنوب، ولذلك أخبر النبي ﷺ كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه لَمَّا سأله: (أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «**أَن تَجْعَلَ للهِ نِدًا وَهُوَ خَلَقَكَ**»)، سبحان الله! الله يخلقك وأنت تجعل له ندًا في العبادة!! أيّ ذنب أعظم من هذا الذنب؟

ولا يدرك هذا إلا مَن عظَّم الله حق تعظيمه، من وَقَرَ في قلبه تعظيمُ الله سبحانه وتعالى، وأن له الكمال المطلق والعظمة كلها، فإنه يدرك خطورة الشرك، أما من لم يبلغ هذه الدرجة فإنه لربما هان شأن الشرك في قلبه.

ثانيًا: أن عقوبته أعظم العقوبات، ونبه الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ههنا على ذلك، فأول ذلك: أن الشرك -كما قدَّمت- يوجب الخلود في النار لمن مات عليه، والخلود شيء مهما حاول الإنسان أن يتصوره فإنّه لربما عظُم عليه، أن تتصور مدة لا متناهية، يكون فيها الإنسان في سواء الجحيم، وفي أشد العذاب، وهذا شيء عظيم جدًا.

والسَّبب: أنه ما وحَّد الله، مع أن التوحيد سهل موافق للفطرة، ومن كان موحدًا حقًا فإنه يَلْتَذُّ بتوحيده، فالأمر هَيِّن، لكن غلبَتْ على المشرك شِقْوَتُه، ولذلك في «الصحيحين»: أخبر النبي ﷺ: أن الله جل وعلا يقول لمن وقع في هذا الشرك: «**لَو كان لَكَ ما في الأرضِ جميعًا، أَكُنتَ مُفْتَدِيًا به؟**» قال: نعم: قال: «**قَدْ سَأَلْتُكَ ما هُوَ أَهْوَن مِن هذا وأنت في صُلْبِ أَبِيك آدم: أَلَّا تُشْرِك بِي شيئًا، فَأَبَيْتَ إِلَّا الشرك**»، أمْرٌ عجيب! سببٌ يوقع في عذابٍ لا نهائي، وترْكه سهل، ومقابله شيءٌ يتوافق مع الفطرة، فيَعجب الإنسان والله من حال هذا المشرك الضال، كيف تجاوز التوحيد إلى هذه الجريمة العظيمة التي لا شهوة تدعو إليها، لا توجد شهوة تدعو إلى ذنب الشرك، بقية الذنوب والمعاصي لها دوافع من شهوات في النفوس، أمَّا الشرك فإنه فساد محض، وخُبْث لا غير، فاستحقَّ بهذا أن يكون صاحبه قد تأبَّد عذابه في النار، ﴿**إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ**﴾ [المائدة:72].

ثانيًا: أن الشرك لا يُغفر لصاحبه البتَّة، كل الذنوب فإنها تقبل المغفرة، إن شاء الله جل وعلا غفرها إلّا الشرك، (﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾)، فلا سبيل إلى مغفرة الشرك إلا إذا تاب منه صاحبه، أمَّا لو أَصَرَّ فمات عليه فإنه لا سبيل إلى مغفرته؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد حَكَم وأخبر وقال: ﴿**مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ**﴾ [ق:29]، (﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا﴾).

ثالثًا: أنه مُوجِب لحبوط جميع الأعمال، كما نبه المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ، قال: (**وَأَحْبَطَ العَمَلَ**)، فالعمل مفرد محلَّى بـ(أل) فيَعُمّ، كل الأعمال التي يزعم صاحبها أنه يتقرب بها إلى الله جل

وعلا فإنه حابطة لمن مات على الشرك.

ولذلك الله جل وعلا يقول: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:88]، ويقول: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:65]، إذا كان النبي ﷺ وإخوانه من الأنبياء يُقال لهم: مَن وقع منكم في الشرك فإنه عمله حابطٌ، فكيف بمَن سواه؟

والله جلّ وعلا ذكر لنا مَثلَين عَجيبَين في شأن عمل هذا المشرك الكافر، فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [النور:39]، وفي الآية الأخرى يقول جل وعلا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ﴾ [إبراهيم:18]، نسأل الله السلامة والعافية، رماد والريح قوية، أين تستطيع أن تجمع هذا الرماد؟ ذهب هباءً منثورًا، ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:23]، نسأل الله السلامة والعافية.

يَتعب ويكدح في الدنيا، ويصلي ويصوم، ويقرأ القرآن، ويحج ويعتمر، ويتصدق، ويفعل أشياء كثيرة يتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى، لكنه واقع في الشرك الأكبر، فيوم القيامة لا ينتفع من ذلك العمل بشيء.

قوله: (وذَلِكَ بِمَعْرِفَةِ أَرْبَعِ قَوَاعِدَ)، الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ استعمل كلمة (**القواعد**) ههنا استعمالًا لُغويًا، باعتبار أن القاعدة هي الأساس للشيء، قاعدة الشيء أساسه، ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾ [البقرة:127]، يعني: أُسُس البيت.

فهذه أصول ومسائل عظيمة يَنبني عليها معرفة التوحيد ومعرفة الشرك، وهي حرية بأن تكون منك دائمًا على ذُكر.

وأنا أقول تَتميمًا لما يذكر الشيخ ونتدارسه إن شاء الله: **اعتنِ -يا رعاك الله- بفهم خمس مسائل فهمًا دقيقًا، فإنك تكون بإذن الله جلّ وعلا على خير عظيم ومعرفة حَقَّة بالتوحيد وضدّه.**

أولًا: أن تعرف ما هو التوحيد الذي دعا إليه النبي ﷺ.

ثانيًا: أن تعرف ما هو الشرك الذي كان النبي ﷺ يحذر منه.

ثالثًا: أن تعرف حال المشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، كيف كانوا يتعبدون، وبأيّ شيء كانوا يتعبدون، وما هي أحوالهم مع آلهتهم، لابد من فِقه حال المشركين الذين بعث فيهم النبي ﷺ، فإن هناك لربما كان هناك تصور مغلوط عند بعض الناس، فأدى به هذا إلى أنه ما فهم الأدلة فهمًا صحيحًا.

رابعًا: أن تعرف ما هي العبادة التي يدور التوحيد عليها، ما تعريف العبادة، ما هو الشيء الذي أمرنا الله سبحانه وتعالى به كثيرًا؟ ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾ [النساء:36]، فهْم معنى العبادة من الأهمية بمكان، الخلل في فهم ما هي العبادة سيؤدي إلى الخلل في فهم حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك.

خامسًا: أن تدرك الفرق بين توحيدَي الربوبية والألوهية، وأن تعرف هل ثَمَّة تلازم بينهما، وما هي حقيقة هذا التلازم، هل هو تلازم من جهة الوجوب والاستدلال، أم هو تلازم في الواقع؟

هذا الأمر من الأهمية بمكان، وكثير من تَلبيس المشركين قديمًا وحديثًا، يأتي من جهة هذه القضية والخلْط بين توحيدي الربوبية والألوهية، والمؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ سيرشدك إلى معاقد عظيمة تتعلق بهذا الموضوع.

إذن معرفة التوحيد ومعرفة الشرك وإدراك ذلك -يا أيها الموحد بتوفيق الله- بمعرفة أربع قواعد مستفادة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

القَاعِدَةُ الأُوْلَى

أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الكُفَّارَ الذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ - مُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، المُحْيِي المُمِيتُ، المُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الأُمُورِ، وَلَمْ يُدْخِلْهُم ذَلِكَ فِي الإِسْلَامِ

والدليلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾ [يونس:31].

قال الشارح وفقه الله:

هذه هي القاعدة الأولى، وهي من الأهمية بمكان.

وأراد الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ بسَوقها أن يُنبِّهنا إلى جواب شبهة يُروِّج لها المشركون كثيرًا، وهي: أن ما يقع من المشركين من التوجه بالعبادة لغير الله ﷻ ليس شركًا، فهؤلاء ليسوا مشركين، لماذا؟ لأنَّ هؤلاء يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي المميت الرازق، ومَن أتى بهذا كيف يكون مشركًا.

يقول: هذا الذي يتوجه للقبور ويدعو أصحابها، ويذبح لها، وينذر إلى آخر ما يفعلون، يقول: هذا ليس مشركًا، ولا يصح وصفه بالشرك؛ لأنّ هذا الإنسان يقول: الله هو الخالق، الله هو الرازق، فكيف نقول هو مشرك؟ رَجلٌ مُوحِّد، لما قال الله الخالق الرازق؛ كان موحدًا، وعليه فوصْفه بالشرك خطأ.

الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن ينبهنا في هذه القاعدة إلى أن المشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، وقاتلهم وخالفهم، كانوا على هذا الاعتقاد، يقولون: الله هو الخالق الرازق، ولكنهم يشركون في العبادة معه سبحانه وتعالى، فوصفهم الله جل وعلا بالشرك، ورتب عليه أحكامه، فحالهم كحال هؤلاء الذين تدافعون عنهم، إذن هذه شُبهة داحضة.

إذن من الأُسس المهمة أن تدرك هذه القضية: المشركون الأولون الذين قاتلهم النبي ﷺ كانوا مُقِرِّين بربوبية الله سبحانه وتعالى؛ وما نفعهم ذلك، لماذا ما نفعهم ذلك؟ لأنهم ما أضافوا إلى هذا الاعتقاد إخلاص الدين لله، فصار وجود هذا الاعتقاد كعَدَمه، ما نفعهم بشيء. الحقُّ أن من لم يَأتِ بتوحيد الله ﷻ في ربوبيته، ويتضمن هذا توحيده في أسمائه وصفاته، مع توحيده في أُلُوهيته، من لم يجمع بين هذين، وأَتَى بالربوبية فحسب فإنه كالذي ما آمن بالله ﷻ أصلًا، هذا كافر وهذا كافر.

التوحيد حقيقة واحدة، أصل التوحيد حقيقة واحدة، إما أن يأتي به الإنسان أو لا يأتي به، أما الذي يأتي بشطر، وهو الاعتقاد بربوبية الله جل وعلا دون الشطر الآخر، وهو عبادة الله بإخلاص، فإنه في الحقيقة ما أتى بالتوحيد.

كما أن الطهارة -وقد تقدَّمت- لا تَتَقَسَّم، يعني: لا ينفع أنك تغسل وجهك تغسل يديك فقط وتقول: أنا تطهرت بعض الطهارة، يمكن أن تصلي بمثل هذا دون أن تكمل الوضوء؟ لا يمكن، الطهارة حقيقة واحدة، كذلك التوحيد حقيقة واحدة مركبة من هذين الأمرين، فلا تنفع الإنسان إلا باجتماعهما، أن يعتقد ربوبية الله سبحانه وتعالى، ويوحد الله بها، وكذلك أن يعتقد ألوهيته، وأن يوحد الله بالفعل في عبادته، فيَعبده مخلصًا له الدين.

قوله: (أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الكُفَارَ الذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ مُقِرُّونَ أَنَّ اللهَ هُوَ الْخَالِقُ الرَّازِقُ، المُحْيِي المُمِيتُ، المُدَبِّرُ لِجَمِيعِ الأُمُورِ، وَلَمْ يُدْخِلْهُم ذَلِكَ فِي الإِسْلَامِ) إذن مَن كان على شاكلتهم فحُكمه حكمهم.

قوله: (والدليلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾).

إذن علينا أن نستوعب شبهة القبوريين هاهنا، وهي: أنهم إما أن يقولوا: إنه لا فرق بين الربوبية والألوهية، أو أن بينهما تلازمًا واقعيًا، بمعنى: لا يمكن لأحد أن يعبد الله إلا وقد اعتقده هو الرب الخالق الرازق، والعكس، كُلُّ مَن اعتقد أن الله هو الخالق الرازق المدبر فقد أتى بالعبادة، ووحَّد الله فيها.

إذن: إما لا فرق بينهما، أو أن بينهما تلازمًا من حيث الواقع، فالذي جاء بالربوبية فالواقع أنه جاء بالألوهية؛ لأنه لا عبادة إلا باعتقاد الربوبية، وهذا قد عبد الله، إذن هو اعتقد الربوبية في الله سبحانه وتعالى، فجمع بينهما.

أمَّا أهل السنة والجماعة فيقولون: إنَّ بين اعتقاد الربوبية واعتقاد الألوهية تلازمًا من حيث الوجوب لا من حيث الوقوع، بل يمكن أن ينفك أحد هذين عن الآخر.

بمعنى نحن نقول: يجب على من اعتقد أن الله جل وعلا واحد في ربوبيته أن يوحده في عبادته، لكن قد يقع هذا وقد لا يقع، قد يُوفَّق الإنسان فيجمع إلى هذا الاعتقاد توحيدَه سبحانه في العبادة، وقد يُخذل -والعياذ بالله- بسبب من نفسه، وما الله بظلام للعبيد، فيكون

مشركًا، وعليه فلا ينفعه اعتقاده بربوبية الله، حُكمه وحكْم الملحد واحد من حيث أن هذا كافر وهذا كافر، وإن كان الكفر لا شكّ أنه درجات، لكن في الخلاصة أن هذا وهذا سواء في الحكم العام، هذا كافر وهذا كافر، ولا ينفعه اعتقاده إذا لم يَقُم بلازمه، أَلَا وهو عبادة الله سبحانه وتعالى، إذا كان الله خلقك إذن عليك أن تعبده، يجب عليك أن تعبده.

هكذا ينبغي أن نفهم قضية التلازم بين توحيدَي: الربوبية والألوهية.

والأدلة على هذا أدلة كثيرة، والوقت لا يسع لكثير من الاستدلال والتفصيل، ولذلك نمر على كُلّيات وجمل في هذه المسائل العظيمة، وإلا فالشرح والتفصيل يحتاج إلى وقت مَديد، وأنا حريص على أن ننتهي من هذه الرسالة في الوقت المحدد لها بتوفيق الله جل وعلا.

لكن المقصود: أنهما من حيث الوقوع يمكن أن ينفكَّا، وأن التلازم من جهة الوجوب، ولذلك جاء التنبيه على هذا التلازم في الأدلة.

ويدل على هذا أن هناك بين أيدينا عدة أمور:

أوّلًا: الفَرق اللغوي، فالربوبية اعتقاد أن الله سبحانه وتعالى هو الرب وحده، والألوهية -توحيد الألوهية-: هو اعتقاد أن الله جل علا هو الإله وحده.

وكلمة (الرَّب)، وكلمة (الإله) بينهما فرق واضح من جهة اللغة، **فالإله**: هو من له الأُلُوهة، والإلهة والأُلُوهية، يعني: العبادة، (أَلَهَ يَأْلَهُ) (عَبَدَ يَعبُدُ)، وعليه فـ(إله) اسم مفعول، (إله) فِعَال بمعنى: مفعول، بِساط بمعنى: مبسوط، كتاب بمعنى: مكتوب، إله بمعنى: مألوه، يعني: معبود، فهو اسم مفعول.

أما (رَبّ) فعلى زِنة اسم الفاعل، أصل الكلمة: (رابٌّ)، فكيف نجعل اسم المفعول

بمعنى اسم الفاعل، لا يَتأتَّى هذا.

ثانيًا: أن الله جل وعلا قد قال في آخر سورة في المصحف: ﴿**قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ**﴾ [الناس:1-3]، لو كان الرب هو الإله لكان في السورة تكرارًا يتنافى مع البلاغة، فإنه كأنه -يعني على هذا الذي ذكروا- كأنه قال: (قل أعوذ برب الناس، ملك الناس، رب الناس)، فهذا تكرارًا غير مناسب، لمَّا قال: (رب)، وقال: (إله)، إذن هناك فرق بيِّن بينهما.

ثم إننا نجد أن المشركين إنما يحدثون أو يخبرون عن معبوداتهم بأنها آلهة، وما جاء في القرآن قطّ إخبارهم عمَّا يتوجهون له ويقصدونه بأنه أربابهم، فدائمًا تجد أنهم يخبرون عن آلهتهم، ولذلك الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَقَالُوا أَآلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ**﴾ [الزخرف:58]، ما قالوا: (أَأَرْبابنا خير أم هو)، ولذلك نجد أنهم يقولون: ﴿**إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا**﴾ [الفرقان:42]، أَتجدون في قراءة (إن كاد ليُضلّنا عن أَربابنا)؟ لا، ﴿**إِنْ كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا**﴾.

نجدهم يقولون: ﴿**أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا**﴾ [الصافات:36]، إذن هذا يشعرك بأن الشأن في هؤلاء المشركين الذين قاتلهم النبي ﷺ، وأنهم كانوا ينازعون في قضية الألوهية وليس في قضية الربوبية، أمَّا في قضية الربوبية فإن القوم يُسلِّمون أن الله ﷻ هو الذي يخلق، هو الذي خلقهم، خلق السماوات، خلق الأرض، هو الذي يرزق، هو الذي يحيي، هو الذي يميت، هو الذي يدبر الأمر، لا ينازعون في ذلك البتَّة.

وذكر المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ دليلًا على هذا، وهو آية يونس.

وهذه المسألة من الأهمية بمكان، لابد أن تستوعبها جيدًا؛ فإن للمشركين تلبيسات،

واتباعًا للمتشابه في هذه القضية كما هو الشأن في غيرها، لكن في هذه القضية يلبسون كثيرًا، ولذلك حاوِل أن تؤسس عِلمك بالتوحيد بأدلة كثيرة واضحة لا لبس فيها، احرص دائمًا على أن تبني علمك في التوحيد على الأدلة والقواعد والأصول الكثيرة، التي أدلتها واضحة نَيّرة لا لبس فيها، وهكذا هي طريقة علماء التوحيد، مسائل التوحيد واضحة جدًا، وأدلتها من أظهر ما يكون، وأبلغ ما يكون، وحجته فيها بالغة، تبلغ سُويداء القلوب، بعكس حال القبوريين المشركين، الذي يتتبعون متشابهًا من الأدلة، لو أخذته وحده لربما وقع عندك شيء من الإشكال، لكن إن ضَمَمْتَه إلى غيره فهمت الأدلة بمجموعها فإنه يزول هذا الإشكال.

الشاهد: أنهم يتركون الحق الواضح الصريح الذي عليه الأدلة الكثيرة، التي دلالتها بيْن أن تكون نصية وبين أن تكون ظاهرة، ويذهبون يتتبعون هذه المتشابهات، فشتان بين طريقتي الاستدلال، عند أهل التوحيد وأهل الشرك.

فبين أيدينا عشرة أصول أو أدلة أو شواهد، ترشدك إلى أن المشركين الذين بُعث فيهم النبي ﷺ وقاتلهم وكفَّرهم أنهم كانوا مُقِرِّين بربوبية الله جلّ وعلا:

الأمر الأول: تصريحهم بالعبارات الواضحة التي لا لَبْس فيها، تصريحهم باعتقادهم أن الله ﷻ هو الخالق الرازق المدبر، كما ساق المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ آية يونس، وجاء هذا في أدلة كثيرة في كتاب الله سبحانه وتعالى، أن الله جل وعلا هو الذي خلقهم، ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [الزخرف:87]، ﴿**وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ [لقمان:25]، فأيُّ شيء أوضح من هذا؟ أن القوم كانوا يعتقدون أن الله ﷻ هو الخالق الرازق.

إذن أين الخلل الذي كان عندهم؟ الخلل عندهم كان في قضية العبادة، في قضية توحيد

الإلهية.

ههنا يورد المشركون تلبيسًا، وهو أنهم يقولون: إن المشركين في جوابهم هذا كانوا كاذبين، يعني: ليقولُنَّ الله يعني: هذه كلمة أرادوا بها مُصانعة المسلمين، أو مداهَنَتهم، أو أي سبب من الأسباب، المُهم أنهم أخبروا بخلاف ما يعتقدون، هذا الكلام كان منهم كذبًا، وهؤلاء مشركون لا يَتورَّعون عن الكذب.

الجواب عن هذا أن يُقال: لو كان ما قُلتم حقًا لَأكْذَبَهم الله سبحانه وتعالى، لأنك لو استقرَيت القرآن لَمَا وجدت فيه أن كلامًا كذبًا مُفترًا يقوله المشركون إلا ويُعقَّب عليه ببيان فساده، وأنه كذب، ولذلك تأمل مثلًا في قول الله ﷻ: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا**﴾ [الأعراف:28]، كلمة (واللهُ أَمَرَنا بها) في الحقيقة كذب، ماذا عقَّب الله ﷻ بعد ذلك؟ ﴿**قُلْ إِنَّ اللَّهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [الأعراف:28]، لابد أن يُبيَّن كذبهم، ﴿**إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ**﴾ [المنافقون:1]، ﴿**سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا وَلا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾ [الأنعام:148]، تجد أنه إذا جيء بكلام لهم كانوا فيه كاذبين مُفتَرِين، أنهم يُعَقَّب عليه ببيان كذبهم، وهذا لا نجده في آيات عديدة، فيها تصريحهم باعتقادهم، إذن ليس الكلام إخبارًا بخلاف ما يعتقدون.

الأمر الثاني: أن هذه الآيات التي بَيَّنت تصريحهم بهذا الأمر كانت مكية، هذه الآية التي أوردها الشيخ: (﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾) في سورة يونس، وسورة يونس

كانت مكية، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾ في الزخرف مكية، في الزمر مكية، في العنكبوت مكية، في غيرها تجد أن الآيات التي فيها إخبار عن اعتقادهم وإخبارهم باعتقادهم إنما كانت مكية، ماذا نستفيد من هذا؟

نستفيد من هذا: أن هذا الجواب منهم كان إبَّان قوتهم، فما حاجتهم إلى أن يكذبوا، والقوم -كما تعلمون- كانوا يأنفون من الكذب، هذا هو الأصل فيهم، ولذلك أبو سفيان رضي الله عنه لمَّا أخبر في حال كفره هرقل، أخبر أنه كان يَوَدّ أن يخبر عن النبي ﷺ بخلاف ما أخبر به، لكنه ما أراد أن يُؤثَر عنه الكذب؛ لأنّهم كانوا يرونه دَناءة، وهم يتنزهون عنه.

فالمقصود: أن هذه الآيات لو كانت مدنية لربما كان هناك شُبهة لهم في أنهم أرادوا مُصانَعة المسلمين، لكن لمَّا كانت مكية إذن كانت في وقت قوتهم وعزتهم. إذن لا يمكن أن يكونوا فيها كاذبين.

الأمر الثالث: أن هذا الذي قالوا مخالف لاتفاق السلف، فما ذَكَر أحد من السلف قطّ أن هذا الإخبار منهم كان كذبًا.

الأمر الرابع: أنك تجد أن هذه الآيات إنما سِيقت لبيان تناقضهم، وللإنكار عليهم في عبادتهم غير الله لا لتكذيبهم، ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ﴾، تجد أن الله يقول: ﴿فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت:61]، كيف ينصرفون عن هذا الحق، وهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي خلقهم، ولذلك في آية يونس: (﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾) بأيّ شيء خُتِمت؟ (﴿فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ﴾)، أَلَا تتقون الله؟ تعرفون أن الله ﷻ هو الخالق الرازق، ثم تَعدِلُون في عبادته إلى غيره، وتُسوَّون غيره به؟ إذن هذا دليل على أن ما ذكروا

ليس بصحيح.

الأمر الخامس: ما بالُهم ما قالوا كذبًا إلا في هذه القضية!

المشركون قد خالفوا في أمور أخرى، أليس كذلك؟ خالفوا في نُبوة النبي عليه الصلاة والسلام، لماذا في قضية النبوة ما أقرُّوا بنبوة النبي عليه الصلاة والسلام كذبًا ومصانعة؟ هل تجدون هذا؟ لا تجدون هذا.

لماذا ما أثبتوا البعث كذبًا، ليُصانِعوا ويداهنوا المسلمين؟ بل كانوا صريحين، يظهرون عقيدتهم، ﴿**وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ اللهُ مَنْ يَمُوتُ**﴾ [النحل:38]، إذن هذا دليل على أن ما ذكروا غير صحيح، تنبَّه إلى هذا، فهذه الأدلة التي فيها إخباره باعتقادهم بربوبية الله ﷻ أدلة عند أهل السنة والجماعة قوية، لذلك حذارِ من أن يُلَبِّس عليك فيها الملبسون.

الدليل الثاني على أنَّ القوم كانوا مقربين بربوبية الله سبحانه وتعالى: أنهم كانوا في الشدائد يضرعون إلى الله سبحانه وتعالى وحده، ويدعونه وحده، ولو كانوا يعتقدون في معبوداتهم أنها تملك شيئًا في السماوات والأرض لدَعوها؛ لأنهم يحبونها، ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**﴾ [البقرة:165]، هم يحبونها ويعظمونها، فلو أنهم اعتقدوا أنّ تصريف شؤُون السماوات والأرض عند آلهتهم، وأنها قادرة على إنقاذهم، والله لَدَعوها، لكن لمَّا عَدَلُوا عن دعائها في حال الشدة، دلَّك هذا على أنهم يعتقدون أنها لا ربوبية لها، ولذلك توجهوا إلى الرب حقًا، الذي يعتقدونه ربًا واحدًا سبحانه وتعالى، ولذلك الله جل وعلا يقول: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ**﴾ [العنكبوت:65].

الأصل الثالث: إقرارهم بعَجْزِ آلهتهم، يعني: عندنا في الآيات السابقة، يعني: ﴿**فَإِذَا**

رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ﴾، ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:67]؛ هذه فيها كونهم توجهوا بالدعاء لله جل وعلا كان هذا منهم؛ لأنهم اعتقدوا في الله أنه الرب وحده.

وفيها وجه ثانٍ -هذا الذي أريد أن أنبه عليه- وهو: أن هذا فيه إخبار منهم بلسان حالهم أن آلهتهم عاجزة، مجرد قولهم ومجرد دعائهم لله سبحانه وتعالى في حال الشدة، هو في الحقيقة إخبار منهم عن عَجْز آلهتهم، كأنهم يقولون: يا الله أنت القادر، وآلهتنا ومعبوداتنا عاجزة، وإذا كانوا يعتقدونها عاجزة، فمن البَدِيهِي أنّ العاجز لا يصلح أن يكون ربًا، إذن هم ما اتخذوها أربابًا.

الأصل الرابع: أنهم كانوا يصرّحون بأن غاية شأن آلهتهم أن تكون شافعة عند الله سبحانه وتعالى، ﴿وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾ [يونس:18]، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾ [الزمر:3]، ولو كانوا يعتقدون في معبوداتهم شيئًا أكثر لَبيّنوا؛ لأنّ السبب المقتضي لهذا موجود، أَلَا وهو حُبها وتعظيمها، هم يريدون أن يعظموا شأنها ويُفخّموا أمرها، لكن غاية الأمر في وصْفها هو أنهم جعلوها تشفع عند الله ﷻ، لكن ما كان الأمر عندهم فيها أبلغ من هذا، من أنها تدبر السماوات والأرض، وتخلق وترزق.

الأصل الخامس: أنهم كانوا يصرحون بأن معبوداتهم مملوكة لا مالكة، والمملوك لا يصلح أن يكون ربًا، إذن ما اتخذوها أربابًا، ففي «صحيح مسلم» من حديث ابن عباس رضي الله عنه: أنه أخبر عن النبي عليه الصلاة والسلام بأنه كان يسمع تلبية المشركين التي كانوا فيها يقولون: (لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك، تملكه وما مَلَك)، فإما أن تكون «ما» هاهنا مصدرية، فتَملِكُه، ومِلْكَه، إذن هو لا يملك، أو تكون «ما» نافية، تملكه وهو لا يملك،

ومن كان كذلك فإنه لا يستحق عند المقر بهذا أن يكون هو الرب.

الأصل السادس: أن الله جل وعلا أثبت لهؤلاء المشركين إيمانًا وشركًا، فقال سبحانه: ﴿**وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ**﴾ [يوسف:106]، وفسَّر هذا ابن عباس رضي الله عنهما، كما أخرج الطبريُّ عنه أنه قال: «مِن إيمانهم»، أنه إذا قيل لهم: مَن خلقهم، ومن خلق السماوات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم يشركون.

وكذلك جاء هذا عن عِكرمة تلميذ ابن عباس رضي الله عنهما.

فهذه الآية تبين لك أنَّ القوم كان عندهم قَدْر من الإيمان، هو الاعتقاد بربوبية الله جل وعلا، والإقرار بربوبية الله سبحانه وتعالى، ولكنهم مع هذا كانوا مشركين بالله سبحانه وتعالى، حيث اتخذوا مع الله آلهةً يتوجهون لها في العبادة، وهذا فيه نقْض للأصل الذي ذكروا، وهو التلازم الحاصل بين الربوبية والألوهية وقوعًا.

الأصل السابع: أنه لم يَرِد في نصوص الكتاب والسنة أمْر هؤلاء المشركين بتوحيد الله جل وعلا في الخالقية والرازقية والتدبير، ولكننا وجدنا أمْرَهم بعبادة الله جل وعلا، ﴿**وَاعْبُدُوا اللهَ وَلا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا**﴾، ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ**﴾، إذن كانوا يُؤمَرون بالشيء الذي ما أتوا به، أما اعتقاد ربوبية الله سبحانه وتعالى، وأنه الخالق الرازق إلى آخره هذا كانوا مُسلِّمين به، ولذلك لم نجد أمْرَهم به، ولو كانوا غير مُقرِّين بربوبية الله جل وعلا لأُمِروا بهذا.

الأصل الثامن: أن استقراء القرآن يدل على أن الله سبحانه وتعالى كان يحتج عليهم في مسألة الألوهية بإقرارهم في موضوع الربوبية، وذلك في مواضع عديدة في كتاب الله، ﴿**يَا أَيُّهَا**

النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:21-22]، وأنتم تعلمون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي فعل ما سبق، هو الذي خلق، وهو الذي رزق، وجعل الأرض فراشًا إلى آخره، أنتم تعلمون هذا، فكيف تجعلون معه أندادًا تُشرِكونهم مع الله سبحانه وتعالى في العبادة؟

الأصل التاسع: اعتراف المشركين أنفسهم بأنهم مشركون مع إقرارهم بربوبية الله، تأمَّل معي قول الله جل وعلا: **﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا﴾** [الأنعام:148]، إذن هم يُقرّون على أنفسهم بأنهم مشركون، أَلَا يقرون على أنفسهم بأنّهم مشركون؟ **﴿لَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا﴾** [الأنعام:148].

وماذا تستفيد من قوله: **﴿لَوْ شَاءَ اللهُ﴾**؟

إذن القوم كانوا يعتقدون بأن مَرجع الأمور إلى مشيئة الله، وأن الذي يكون في هذا الكون هو الذي يشاؤه الله سبحانه وتعالى، إذن في هذا إقرار منهم بربوبية الله جل وعلا، وفيها أيضًا أنهم كانوا مشركين، فإذا كانوا مقرين بربوبية الله ﷻ. إذن في أي شيء كان إشراكهم؟ كان إشراكهم في الألوهية.

الأصل العاشر والأخير: وهو الاستفهامات التقريرية العديدة في كتاب الله سبحانه وتعالى في شأن الربوبية، فتجد أن الله سبحانه وتعالى يقول: **﴿هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ﴾** [فاطر:3]، (هل من خالق غير الله) هذا استفهام تقريري، يراد به تقريرهم بهذا الأمر، ثم يُعقِّب عليه بالإنكار عليهم، يعني: كما يقول أبٌ لابن

عنده شيء من العصيان: أَلستُ أباك، أَلَسْتُ الذي رَبَّاك، أَلَسْتَ الذي كذا وكذا؟ هو ماذا يريد؟ يريد تقريره، ولا يستفهم استفهامًا مجردًا، هو يقرره لأجل أن يرتب على هذا التقرير نتيجة، وهي أنه ينكر عليه، إذن كيف تتعامل معي مثل هذا التعامل؟

كذلك نجد ههنا أن الله سبحانه وتعالى يقررهم بهذه الحقيقة التي يُسلّمون بها، ثم كانت النتيجة أن بيّن سبحانه وتعالى أنّ الحق هو أنه لا إله إلا هو، كيف تنصرفون، كيف تنصرفون عن هذا الحق؟

وتجد كذلك أن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لا يَخْلُقُ أَفَلا تَذَكَّرُونَ**﴾ [النحل:17]، أنتم تعلمون أن الله سبحانه وتعالى هو الذي يخلق، وأن معبوداتكم لا تخلق، إذن كيف تُسوّون بينهم؟ أَمَا كانوا يُسوّون بين الله ﷻ ومعبوداتهم في العبادة؟ ﴿**تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ** (97) **إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾ [الشعراء:79-98]، في أيّ شيء؟ في العبادة، وليس في الخلق والرَّزْق.

إذن الله سبحانه وتعالى كان يقررهم بهذه الحقيقة، ثم يُبنى على هذا الإنكار عليهم في ما أنكروه، وهو توحيده سبحانه وتعالى في عبادته.

إذن هذه أصول عشرة، لِتكُن منك على ذُكر في تقرير هذه الحقيقة العظيمة، وهي أن المشركين كانوا مقرين بربوبية الله سبحانه وتعالى، وما أدخلهم هذا في الإسلام.

إذن عَودًا على بَدْء: هذه القاعدة أراد منها المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الجوب عن تلبيسٍ كثيرٍ يقع من المشركين في القديم والحديث، وهو أنَّ المشركين يقع منهم الشرك، وليس كما يدّعون أن توجههم لغير الله سبحانه وتعالى ليس شركًا؛ لأنّ هؤلاء كانوا مقرِّين بربوبية الله سبحانه

وتعالى، فنقول: حال هؤلاء كحال المشركين الأولين سواءً بسواء.

أَوَدُّ أن أُنبّه في ختام كلامنا على القاعدة الأولى إلى ثلاثة تنبيهات:

التنبيه الأول: أن القول بأن المشركين كانوا مقرين بربوبية الله سبحانه وتعالى ليس مدحًا لهم، وإنما هو إزراء عليهم، وزيادة في الإنكار عليهم، وبيان أنهم قوم متناقضون، وأن عقولهم عقول ضعيفة، وأنهم أهل سَفَه، وذلك أني وجدت أن بعض هؤلاء القبوريين يتهم أهل التوحيد بأنهم يمدحون المشركين الأولين، ما شاء الله! أنتم تمدحونهم وتصفونهم بأنهم كانوا مقرين بتوحيد الربوبية، هذا -يا إخوتاه- ليس مدحًا لهم، بل هو إزراء عليهم!

التنبيه الثاني: أن أهل السنة حينما يقولون: إن المشركين الأولين كانوا مقرين بربوبية الله سبحانه وتعالى؛ هذا عند أهل السنة في الجملة، يعني: هم في الجملة هكذا، وليس بالنظر إلى كل فرْد فرْد؛ لأن اعتقادات الناس بحْر لا ساحل له، فكوننا نجزم بأن اعتقاد كل إنسان كان في ذلك العصر على هذه الشاكلة هذا ليس بالإمكان البتَّة، لكن هم في الجملة كانوا على هذا الاعتقاد.

وأيضًا هذا الإقرار إقرارٌ إجمالي، يعني إجمالًا هم مقرُّون، وليس إقرارهم إقرارًا تفصيليًا أو هو على جهة التحقيق، وإلا فلا شكّ أنّ هذا الإقرار فيه نقص عظيم، وخلل كبير، فإنهم كما وصفهم شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنهم كانوا مشركين في بعض الربوبية، وخلَلُهم في توحيد الربوبية ليس يحتاج إلى بيان، مجرد إنكارهم إنزال الكتاب على نبينا محمدٍ ﷺ، بلْ وإنكار نبوة النبي ﷺ، وإنكار البعث هذا كله في الحقيقة نقص عظيم في اعتقاد ربوبية الله جل وعلا، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿**وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ**﴾

[الأنعام:91]، ناهِيك عمَّا وقعوا فيه من أمور تقدح في توحيد الربوبية، كلِبْس التمائم، والخيوط، وقولهم (مُطِرنا بنَوء كذا وكذا)، إلى أشياء كثيرة كانوا يقعون فيها من هذه الشاكلة.

بَلْ كونهم ما التزموا بلازم اعتقاد ربوبية الله جل وعلا؛ هذا دليل على نقص عظيم في هذا الاعتقاد، ولذلك صَدَق إمام الدعوة رَحِمَهُ ٱللَّهُ حينما قال في إحدى رسائله: «ولذلك كان توحيد الربوبية هو الأصل، ولا يَغلَط في الألوهية إلا من لم يُعطِه حقه»، الأصل الذي يُبنى عليه توحيد الألوهية، فأوّل ما يدخل القلب توحيد الربوبية، ثم يكون توحيد الألوهية، هذا للموفَّق.

قال: «ولذلك كان توحيد الربوبية هو الأصل، ولا يَغلَط في الألوهية إلا مَن لم يُعطِه حقه».

مَن اعتقد الاعتقاد الحق الكامل في ربوبية الله سبحانه وتعالى لن يكون منه خطأ في توحيد الألوهية.

لكن هؤلاء المشركين كانوا مقرِّين بالأصول العامة الكبرى بربوبية الله سبحانه وتعالى، كَون الله هو الخالق، هو الرازق، هو المحيي، هو المميت، هو المدبِّر، إلى آخره، وهذا القدر كافٍ في الاحتجاج عليهم في مسألة الألوهية.

التنبيه الثالث: نحن إنما نتحدث عن الذين بُعث فيهم النبي ﷺ وقاتلهم لا مَن سواهم، يعني ليس الكلام عن كل الكفار، إنما كان الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول: (**أَنْ تَعْلَمَ أَنَّ الكُفَارَ الذِينَ قَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ**)، وإلا فثَمَّة أصناف من الكفار كانوا ينكرون ربوبية الله سبحانه وتعالى، بل كان منهم من ينكر وجود الله أصلًا، وكان هناك نصارى مشركون في الربوبية شركًا واضحًا

صريحًا، وكان هناك مجوس يشركون مع الله سبحانه وتعالى في ربوبيته إشراكًا صريحًا، إلى آخره.

إذن نحن نتحدث عن المشركين الذين قاتلهم رسول الله ﷺ.

هذا هو موضع البحث، والله أعلم.

قَالَ المُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللهُ:

القَاعِدَةُ الثَّانِيَةُ

أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوجَّهنَا إِلِيهِم إِلاَّ لِطَلَبِ القُربَةِ وَالشَّفَاعَةِ.

فَدَلِيلُ القُرْبَةِ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:3].

ودَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:18].

وَالشَّفَاعَةُ شَفَاعَتَانِ: شَفَاعَةٌ مَنْفِيَةٌ، وشَفَاعَةٌ مُثْبَتَةٌ.

فَالشَّفَاعَةُ المَنفِيَةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيهِ إِلَّا اللهُ.

وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:254].

وَالشَّفَاعَةُ المُثْبَتَةُ هِي: التِي تُطْلَبُ مِنْ اللهِ، وَالشَّافِعُ مُكْرَمٌ بالشَّفَاعَةِ، وَالمَشْفُوعُ لَهُ مَنْ رَضِيَ اللهُ قَولَهُ وعَمَلَهُ بَعْدَ الإِذْنِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:255].

قال الشّارح وفّقه الله:

هذه القاعدة الثانية، وهي مبنية على الأولى، هذه القواعد بعضها مبنيٌ على بعض، لمَّا بين لنا في القاعدة السابقة: أن المشركين الأولين كانوا مقرين بربوبية الله جل وعلا مع كونهم مشركين.

قد يقول قائل: إذن لماذا أشركوا؟ إذا كانوا يعتقدون أن الله هو الخالق الرازق، لأيِّ سببٍ أشركوا؟

أراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُبين لنا في هذه القاعدة أنهم إنما أشركوا لأجل طلب الشفاعة والتقريب إلى الله سبحانه وتعالى.

والشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد بهذه القاعدة أن يَرُدَّ على دعوى يدعيها المشركون، وهي أنهم إذا قيل لهم: أنتم مشركون، وتقعون في الشرك، أنهم يقولون: حاشا، نحن ما نشرك.

نقول: إذن ماذا تصنعون؟

يقولون: نحن فقط نطلب الشفاعة، أمَّا الله سبحانه وتعالى فإننا نعبده ونتوجه إليه بالعبادة، لكن هؤلاء لَهُم جاه ومكانة، النبيُّ والولي والصالح هؤلاء لهم مكانة، فنحن إنما نسألهم الشفاعة.

فأراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن يُنبّه إلى أن هذا الاعتقاد من حقيقة الشرك، وأن هذا الذي تفعلون يجعل حالكم كحال المشركين الأولين سواء بسواء، ما خرجتم عن حال المشركين، تقولون: نحن لا نشرك، إنما نطلب الشفاعة، أراد الشيخ أن يقول: هذا هو الشرك، وأنتم في هذا مشابهون للمشركين الذين كفرهم النبي ﷺ وقاتلهم.

وقد عَلمنا أن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أراد أن ينبه بها إلى أن ما عليه هؤلاء المشركون مِن زعم أنهم ما أشركوا، وإنما كانوا يطلبون القربة والشفاعة، أن هذا زعم باطل، وأنهم بهذا الزّعم وهذا الاعتقاد قد وقعوا في الشرك، وأن حالهم كحال المشركين الذين كفرهم النبي ﷺ وقاتلهم.

قوله: (أَنَّهُمْ يَقُولُونَ: مَا دَعَوْنَاهُمْ وَتَوجَّهنَا إِلَيهِم إِلاَّ لِطَلَبِ القُربَةِ وَالشَّفَاعَةِ)، هؤلاء المشركون الذين بُعث فيهم النبي ﷺ كان هذا شأنهم، وهذه حالهم، يتوجهون بالعبادة لغير الله طلبًا للقربة والشفاعة.

والمراد بالقُربة: أنهم يسعون بتقرّبهم إلى آلهتهم أن تُقرِّبهم إلى الله، فيكونون قريبين من الله، وقريبين من رحمته، هكذا ظنُّوا، فهم بتقربهم لآلهتهم يتقربون إلى الله من خلال تقريب هؤلاء الآلهة لهم عند الله.

والدليل على هذا آية الزمر: (﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ﴾)، لاحظ أنه حُذف الخبر، وذلك لوضوح الذين اتخذوا من دون الله أولياء، يقولون: (﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى﴾).

وجاء هذا أيضًا في قول الله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ * فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذَلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ [الأحقاف:27-28]، ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ قُرْبَانًا آلِهَةً﴾، فكلمة ﴿آلِهَةً﴾، هي بدل عن ﴿الَّذِينَ﴾، يعني: هلَّا نصَرَ هؤلاء المشركين هذه المعبودات التي توجهوا بها إلى الله سبحانه وتعالى حينما احتاجوا إلى النصرة، هلَّا نصرتهم؟ فهم جعلوها آلهة لكونهم أرادوا بها أن تكون مُقرِّبة لهم إلى الله، فكلمة ﴿قُرْبَانًا﴾ ههنا الصحيح أنها حال،

فهم اتخذوها آلهة حال كونها تقربهم إلى الله ﷻ قربانًا وزُلفى في زعمهم، فهذا عن القربة.

قوله: (ودَلِيلُ الشَّفَاعَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ﴾) يعني: القوم ظنُّوا أو زعموا أن الله سبحانه وتعالى لا يمكن الوصول إليه مباشرة، بل لابد من اتخاذ الوسائط والشفعاء، لأجل أن توصل حاجاتهم إلى الله سبحانه وتعالى، **وهذا له في زعمهم سببان:**

أولًا: من جهة الأدب، يقولون: الأدب ألا تتوجه بالسؤال لِذِي السلطان مباشرة، إنما أن تتوجه لمقرب عنده فيرفع حاجتك، ويشفع لك عنده.

ثانيًا: أن اتخذا هؤلاء الشفعاء أَنجحُ في تحصيل المقصود، فمَن توجه بالسؤال والحاجة إلى ذِي السلطان مباشرة لرُبما أجاب، ولربما لم يُجبْه، لكن المؤكد أنه إذا رفع الحاجة إليه مقرب عنده أحد أعوانه وأحد الذين يحبهم فإنه سوف يتحقق لك مقصودك قطعًا، هكذا زعموا، قاسوا هذا القياس الفاسد، الذي هو في حقيقته ظنٌّ السوء بالله جل وعلا، ﴿**وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [فصلت:23].

والأمر كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

فالشِّـــركُ تَعظـــيمٌ بجهـــلٍ مَـــعْ ... قِيـاسِ الـرَّب بـالأمراءِ والسُّـلطانِ
ظَنُّـــوا بـــأَنَّ البـــابَ لا يُغشـــى ... بـدُونِ تَوسُّـط الشُّـفعاءِ والأَعـوانِ

قياس فاسد، جعلوا الله سبحانه وتعالى كهؤلاء السلاطين في الدنيا، يحتاجون إلى من يرفع الحاجات إليهم ويشفع عندهم، فهذا الذي كان من هؤلاء، يتقربون لهذه المعبودات من دون الله جل وعلا؛ لأجل أن تقربهم إلى الله سبحانه وتعالى.

إذن هؤلاء المشركون منهم مَن كان يعبد هذه الآلهة، فيتخذها مُقرِّبة له عند الله، ومنهم

من قصد الشفاعة، فيعبد غير الله لأجل أن تشفع له عند الله.

وشيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ جعل هؤلاء - في غير موضع من كُتبه - صنفين: قوم يعبدون غير الله طلبًا للزلفة والتقريب، وقوم يعبدون غير الله طلبًا للشفاعة، ولا مانع أن يكون الأمر حاصلًا في هذا وهذا جميعًا في حالة واحدة أو لأشخاص مُعيّنين.

وأضاف إلى هذا صنفًا ثالثًا: وهم الذين يعبدون غير الله لمجرد المحبة الخالصة، دون قصْد شيء آخر.

وذكر شيخ الإسلام أنّ هؤلاء هم الذين جاء فيهم قوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللهِ**﴾، هؤلاء ما كانوا يقصدون لا زُلفى ولا شفاعة، وإنما كان الأمر عندهم محبة خالصة لغير الله سبحانه وتعالى، فكانوا مشركين بهذا.

لكن على كل حال، الغالب على هؤلاء هو أن يجمعوا بين هذه الأمور الثلاثة، أنهم يعبدون غير الله لأجل أن تقربهم إلى الله، ولأجل أن تكون شفيعة عند الله، والحاصل أنهم كانوا يحبونها كحب الله سبحانه وتعالى.

ثم استطرد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ببيان أنّ الشفاعة شفاعة منفية وشفاعة مثبتة، هذا التقسيم بحسب ورُود الشفاعة في القرآن.

بمعنى: الشفاعة بحسب ورودها في القرآن جاءت تارة مثبتة وتارة منفية، هكذا إذا ذكر العلماء أن الشفاعة شفاعتان مثبتة ومنفية، مرادهم: أنّه بحسب الورود في القرآن جاءت تارة مثبتة وتارة منفية.

كونها منفية يعني: دَلَّ الدليل على أنها لا تكون ولا تحصل ولا تقع في الآخرة، الشفاعة

التي نريدها هي الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى، وهي نوع من الدعاء، والغالب في بحثها عند علماء الاعتقاد أن يراد بها الشفاعة التي تكون في الآخرة، فهؤلاء المشركون كانوا يتوجهون لغير الله سبحانه وتعالى بالعبادة لأجل أن تشفع عند الله سبحانه وتعالى في الآخرة، وهذا هو الغالب على أكثر المشركين قديمًا وحديثًا، طلب الشفاعة هو الغالب عليهم، وهو السبب الحافز لهم إلى الوقوع في الشرك، أنهم يطمحون إلى نيل الشفاعة من هؤلاء، فالتقرب إليهم بالعبادة يجعلهم يَعطِفون على هؤلاء فيشفعون لهم عند الله، فتنالهم رحمة الله سبحانه.

طبعًا هذا بالنسبة لهؤلاء المشركين المنتسبين إلى هذه الملة.

أمَّا المشركون الأولون فالغالب عليهم أنهم كانوا يطلبون الشفاعة في أمور الدنيا؛ لأنهم كانوا منكرين للآخرة، غالبية المشركين كانوا منكرين للبعث، فلا دار آخرة في اعتقادهم، إنما كانت الشفاعة لأجل تحصيل المآرب الدنيوية.

المقصود: أن هذه هي الشفاعة المنفية، أمَّا الشفاعة المثبتة فهي التي جاءت الأدلة بإثباتها في الكتاب والسنة، وأن ثَمّة شفاعة تكون يوم القيامة عند الله جل وعلا من الأنبياء والملائكة والمؤمنين، هؤلاء هم أصناف الشفعاء عند الله ﷻ يوم القيامة، وهذه الشفاعة أنواع دلت الأدلة عليها.

المقصود: أن هذه هي الشفاعة في النصوص تارة جاءت منفية، ﴿**لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ**﴾ [البقرة:254]، وتارة جاء بيان أنها لا تنفع نفوسًا شفاعة عند الله جل وعلا، وتارة جاءت بإثبات شفاعة بإذن الله ﷻ، وتارة بإثبات أن الشفاعة كلها مِلْك لله جل وعلا.

والغالب أن إثباتها يكون استثناءً، ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾ [الأنبياء:28]، ﴿**مَا مِنْ**

﴿شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ﴾ [يونس:3]، (﴿مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾)، فكونها تأتي تارة منفية وتارة مثبتة على سبيل الاستثناء، في حق من أذن الله له، أو من رضي الله عنه.

هذا يدلك على أصل عظيم، لابد من استحضاره في مسألة الشفاعة، وكثير من الناس غافلون عنه، وأوقعتهم هذه الغفلة في وادٍ سَحيق من الضلال، وذلكم هو الفرق بين الشفاعة في الدنيا والشفاعة المثبتة في الآخرة، الشفاعة التي يَعقِلها الناس ويعرفونها في الدنيا ويتعاملون بها في هذه الحياة، هذه ليست هي المقصودة، وليس هكذا تكون الشفاعة عند الله في الآخرة، يجب أن يزول من قلبك كلُّ ظن أن الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى من جنس الشفاعة الدنيوية، التفريق بين هذا وهذا تفريقٌ يوضح لك حقيقة التوحيد وحقيقة الشرك، الشفاعة التي يعرفها الناس ويتعاملون بها في الدنيا التوسطُ لدى ذوي الشأن ببعض الشفعاء، ليس هذا هو المقصود، كما يتعامل الناس به اليوم، هذه الشفاعة شفاعة منفية، هذه يُقال فيها: إنه لا شفاعة في الآخرة، على هذا النحو لا شفاعة، فالفروق فُروق بيّنة عظيمة بين الشفاعة التي يعهدها الناس في الدنيا والشفاعة التي تكون في الآخرة.

ويمكن ذكر بعض الفروق على سبيل التمثيل:

أولًا: الشفاعة في الدنيا الشافع فيها مؤثرٌ مُحَرِكٌ، بل ربما كان آمرًا مكرِهًا، ليست هكذا الشفاعة التي تكون عند الله جل وعلا، ففي الدنيا يشفع الشافع عند المشفوع عنده، عند صاحب الشأن والقرار، فيؤثر فيه ويغير في رأيه، بل ربما حمله حملًا ورغمًا عن أنفه إلى أن يقبل، فمن هذا الذي يظن أن ذلك يكون عند الله سبحانه وتعالى، بل الشفاعة في الآخرة اللهُ سبحانه وتعالى هو الذي حرّك الشافع فيها، وليس أن الشافع هو الذي حرك وأثر في الله

سبحانه وتعالى، فهذا إما أن يكون نوعًا من النفع أو نوعًا من الضر في حق الله سبحانه، وكلاهما منفيان، الله جل وعلا يقول في الحديث القدسي: «**يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضُرِّي فتَضُرُّوني، ولن تَبلغوا نفعي فتَنفعُونِي**».

ثانيًا: أن الشفاعة في الدنيا يُعلِم فيها الشافع المشفوع عنده بما لم يكن يعلمه، إما بحال المشفوع فيه، أو بمآلات قبول الشفاعة، أو بمآلات رفضها أو ما إلى ذلك، ومن ذا الذي يظن أن الله سبحانه وتعالى يجهل شيئًا فيُعلِمُه الشافع به، تعالى الله عن ذلك، اللهُ وسع كل شيء رحمة وعلمًا، ﴿**رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا**﴾ [غافر:7]، فالله بكل شيء عليم، ولا يحتاج إلى شافع يُعلِمُه بشيء.

ثالثًا: أن حصول المقصود بالشفاعة في الدنيا يكون بمشاركة بين الشافع والمشفوع عنده، يعني: لو جاء إنسان عند آخر فقال له: اشفع لي عند هذا المسؤول، فذهب إليه وشفع عنده، وطلب منه أن ينجز طلب ذاك المشفوع له، فإذا أُنجز فالنتيجة قد حصلت، وهذا الإنجاز قد حصل بمشاركة بين الشافع والمشفوع عنده، فثَمة شراكة حصلت فكانت النتيجة، والله سبحانه وتعالى واحد لا شريك له، ووِتْر لا شافع له، فكل شيءٍ منه وإليه وحده لا شريك له.

رابعًا: أن قبول الشفاعة في الدنيا من المشفوع عنده لا تكون إلا عن حاجة، إما رغبة، وإما رهبة، فلا يقبل المشفوع عنده شفاعة إلا وله حاجة إلى هذا القبول، إما حاجة مثلًا إلى أجر من الله سبحانه وتعالى إن كان مخلصًا، أو كان بحاجة إلى شيء يحصِّلُه من المشفوع عنده، أو من غيره بسبب قبول هذه الشفاعة، وقد يكون ذلك لخَوف، فهو يرهب من عدم هذا

القبول شيئًا ما؛ لأنّ الغالب على الشفاعة الدنيوية أنها لا تخرج عن نوعين:

-إما أن تكون شفاعة محبة.

- أو أن تكون شفاعة وجاهة.

شفاعة محبة: أن يشفع المحبوب عند مُحِبِّه، كابنٍ عند أبيه، أو امرأة عند زوجها، أو صديق عند صديقه، فالمشفوع عنده يطلب استمرار وزيادة وُدّ هذا الحبيب بقبول الشفاعة، أو يخاف أنه إذا رده أن يتغير قلبه عليه.

أو تكون شفاعة وجاهة، أن يشفع الوجيه عند صاحب الشأن، فيشفع وزير عند سلطان، أو رئيس الجندِ عند حاكم، فهو يطلب بقبول الشفاعة ولاءه، يرغب في ولائه، أو يخشى إذا رَدَّه أن ينقلب عليه مثلًا، أو يتغير عليه، أو يذهب إلى غيره، فتلحظ أنه لا تقبل الشفاعة في الدنيا من المشفوع عنده إلى لحاجة، إما رغبة، وإما رهبة، والله سبحانه وتعالى هو الغني، الله جل وعلا لا حاجة له إلى شيء من عباده.

خامسًا: أن الشفاعة الدنيوية الغالب فيها أن يكون اعتماد المشفوع له على الشافع دون المشفوع عنده؛ لأنه هو الأساس، وهو المبدأ في حصول المقصود، تجد أنه التفت قلبه إلى الشافع وليس إلى المشفوع عنده، والله سبحانه وتعالى هو الذي يجب أن يكون منتهى قصْد كل إنسان، وهو الذي يجب أن يكون الاعتماد والتفويض عليه سبحانه وتعالى لا على غيره.

سادسًا: أن الشفاعة في الدنيا لا تفتقر إلى إذْن من المشفوع عنده للشافع، إنما في الشفاعة الدنيوية، سواء كانت شفاعة حبيب أو شفاعة وجيه، تجد أنه يهجم عليها هجومًا، ويتقدم بها بين يدي صاحب الشأن شاء أم أَبَى، حتى لو كان كارهًا أن يشفع عنده أحد، تجد أنه يكلمه

فيه ويتوسط فيه، ويشفع عنده فيه، وشأن الله ﷻ أعظم من ذلك، فلا يشفع أحد عند الله حتى يأذن سبحانه وتعالى بذلك إذنًا شرعيًا وإذنًا كونيًا، بل حتى يأمر الله ﷻ الشافع أن يشفع، الشفاعة في الآخرة شأن آخر، الشافع يشفع لأن الله أمره أن يشفع، «**يا محمد، ارفَعْ رأْسَك، وسَلْ تُعطَ، واشفعْ تُشَفَّع**»، وشأن الله أعظم من أن يتكلم عنده أو يشفع أحد إلا بإذنه، (﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾)، هذا كلامٌ عظيم، فيه نفي مَشوبٌ بالتحدي، من ذا الذي يَجرُؤ على أن يشفع عند الله ﷻ دون أن يأذن الله، فالشفاعة في الدنيا لا تفتقر إلى إذن المشفوع عنده.

سابعًا: أن الشفاعة في الدنيا لا تستلزم رضى المشفوع عنده عن المشفوع فيه، بل ربما يُشفع في شخص لا يرضى عنه المشفوع عنده، لكن يقبل الشفاعة رغمًا عنه كما تقدم.

أمَّا شأن الله وعظمة الله فتقتضي خلاف هذا، فلا يمكن أن يُشفع عند الله ﷻ إلا لمن ارتضى، ﴿**وَلا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى**﴾.

ثامنًا: أنه يكثر في الشفاعات الدنيوية أن يهمل المشفوع له تحصيل السبب لإنجاز المقصود اعتمادًا على الشفاعة، عنده واسطة قوية، ولذلك يضعف ويتكاسل عن التحصيل السببي الذي به ينال مراده.

أما في الشفاعة الأخروية لابد من تحصيل السبب، وهو التوحيد، ولذلك لا يمكن أن تكون شفاعة لمشرك، المشركون لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾ [المدثر:48]، ﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ**﴾ [الشعراء:100].

والشفاعة لا تكون إلا لأهل التوحيد.

تاسعًا: أن الشفاعة في الدنيا لا تفتقر إلى حاجة الشافع إلى المشفوع عنده، هو يشفع لأحد مع كونه مستغنيًا عن هذا المشفوع عنده، لكنه يشفع إما لأجل تحصيل غرض دنيوي، أو طلبًا للأجر عند الله ﷻ.

الشافع في الحقيقة شافع مُستغنٍ أم مفتقر؟ الشافع يشفعُ شفاعة مُستغنٍ، هكذا في الدنيا.

أمَّا في الآخرة فالكل مفتقر إلى الله سبحانه وتعالى، والشافع يشفع عند الله ﷻ بإذنه مع افتقاره إلى الله جل وعلا، ولا يمكن أن يخرج عن وصف العبودية، وأنه عبد مطيع لله سبحانه وتعالى مفتقر إليه في كل شيء.

فهذه بعض الأوجه التي تبين لك الفرق بين الشفاعة في الدنيا والشفاعة في الآخرة، لابد أن يزول من القلوب أي ظن بأن الشفاعة التي تكون في الآخرة من جنس الشفاعة التي تكون في الدنيا.

ولذلك لما ظن القبوريون أن من غلوا فيهم من السادة والأولياء والأنبياء يشفعون كالشفاعة التي تكون في الدنيا، بمعنى: أنهم يشفعون متى شاؤُوا، كيف شاؤُوا، لمن شاؤُوا، وقوعوا في الشرك، صارت قلوبهم معلقة بهؤلاء الشافعين، وليس بالله جل وعلا، حتى قال قائلهم:

إن لَم تكَن في مَعادٍ آخذًا بيدي فَضْلًا وإلا فَقُلْ يا زَلَّة القَدَم

قَلبُه معلق بالنبي محمد ﷺ، مع أن رسول الله ﷺ ليس له من الأمر شيء، وقد تقدم لك الحديث -حديث أبي هريرة في الصحيحين- حينما ذكر الغلول وعظمه، وأخبر أن منهم من يأتي يوم القيامة وعلى رَقبته شاةٌ لها ثُغاء، فذكر البعير وذكر البقرة، قال: فيقول: يا محمد،

أغِثْني، فيقول النبي ﷺ: «**لا أَملِك لك من الله شيئًا**»، قد أبلغتك، كانت وظيفة النبي ﷺ هي البلاغ، وقد حصل، يوم القيامة يقول: أغثني، فيقول النبي عليه الصلاة والسلام: «**لا أَملِك لك من الله شيئًا**»؛ لأن الأمر ليس بيده، بل الله سبحانه وتعالى يحُدُّ له حدًا فيخرجهم من النار، ليس هو الذي يشفع في من يشاء، إنما إذا تقدم بالشفاعة بين يدي الله ﷻ وأذِنَ الله له فيها، الله سبحانه هو الذي يحُدّ له حدًا فيخرجهم من النار. إذن الأمر كله من الله وإلى الله.

يا إخوتاه موضوع الشفاعة لابد أن تستحضر فيه أربع أصول، لا تَغِب عن بالك، فإنه بها يتبيّن الفرق بين التوحيد والشرك:

الأصل الأول: فرق بين الشفاعة في الدنيا والشفاعة في الآخرة، وهذا ما تقدم.

الأصل الثاني: أن ﴿**لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾ [الزمر:44]؛ هذه آية عظيمة، ولها شأن في قلوب أهل التوحيد، فإنها تَنزِع جذور الشرك من القلب، ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾، فالأمر فيها ابتداءً وانتهاءً إلى الله سبحانه وتعالى، الله جل وعلا هو الذي أهّل الشافع لأجل أن يشفع، وهو الذي أذن للشافع أن يشفع، وهو الذي أمر الشافع أن يشفع، وهو الذي خلق فعله، وهو الذي أهَّل المشفوع فيه لأن يشفع فيه، وهو الذي أذن بالشفاعة، ثم هو الذي تفضل بقبول الشفاعة، ثم هو الذي عيَّن المشفوع فيهم. إذن الأمر كلّه من الله وإلى الله.

حقيقة الأمر كما قال ابن القيم في كتابه العظيم «إغاثة اللهفان»، وبالمناسبة هذا الكتاب في هذا الموضوع قد أحسن فيه المؤلف ما شاء الله أن يحسن، عقد فيه فصلًا عظيمًا في بيان حقيقة الشفاعة لا تكاد تجده في غيره، فهو فصْل نفيس جدًا في بيان الشفاعة.

ومما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فحقيقةُ الأمر أن الله شَفَع من نفسه إلى نفسه ليَرحَم عَبدَه»، هذه

حقيقة الشفاعة، وبالتالي يجب أن تُنزع من القلوب كل التعلقات لغير الله سبحانه وتعالى في حصولها، الرغبة يجب أن تتوجه إلى الله سبحانه وتعالى في حصول الشفاعة، بخلاف حال أولئك المشركين.

وحقيقة الشفاعة: أن الله أراد إكرام الشافع ورحمة المشفوع له.

فَلِذا أَقامَ الشافعين كرامةً لَهُمُ ورَحْمةَ صاحِبِ العِصيانِ

هذه هي الفائدة من الشفاعة، أن الله أراد إكرام الشافع، وأن تكون الشفاعة سببًا لرحمة المشفوع فيه، فهذه من حكمة الله سبحانه وتعالى أن جعل هذا سببًا لذلك.

الأصل الثالث: فرْق بين الشفيع من دون والشفيع من بعد إذنه.

فرق بين الشفيع من دون الله سبحانه وتعالى، قال سبحانه: ﴿**أَمِ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ شُفَعَاءَ**﴾ [الزمر:43].

وهناك شيء آخر، وهو: الشفيع من بعد إذنه جل وعلا، ﴿**مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ**﴾.

فالأول هو الذي ظنَّه المشركون فيمن اتخذوهم شفعاء، اتخذوا شفعاء من دونه.

وأمَّا أهل الإيمان والتوحيد فإنهم اعتقدوا أنَّ الذي يكون في الآخرة شفاعة من شفيع بإذنه، بعد أن يأذن الله سبحانه وتعالى له.

والفرق بينهما هو الفرق بين المحرِّك والمحرَّك، هو فرقٌ بين مَن اعتُقِد مؤثِرًا، ومن اعتُقِد فيه أنه مُؤثَر فيه، فرْق بين من اعتُقد شريكًا مع الله، ومن اعتُقد عبدًا مطيعًا لله، انتبه للفرق بين الأمرين.

الأصل الرابع: لاحظَّ للشفاعة إلا لأهل التوحيد، في صحيح مسلم قال ﷺ: «**لِكُلِّ نَبِيٍّ**

دَعوةٌ مُجابةٌ، فتَعَجَّلَ كُلُّ نَبيٍّ دَعوَتَه، وإني اخْتبَأْتُ دَعوَتِي شَفاعَتِي لأُمَّتِي يَومَ القيامةِ، فَهِي نَائِلَةٌ إن شاء الله مَن مَاتَ مِن أُمَّتِي لا يُشرِكُ بالله شَيئًا»، إذن السبب الذي تُنال به الشفاعة يوم القيامة هو التوحيد.

والعجيب أن قلوب المشركين تعلقت بالشفاعة، ومن خِذْلانهم اتخذوا السبب الذي حُرموه به، حرموا هذا الشيء بهذا السبب، أَلَا وهو الشرك، فعُومِلُوا بنقيض مقصودهم، لمَّا أشركوا حرموا الشفاعة، مع أنهم ما أشركوا إلا طلبًا لها، نعوذ بالله من الخذلان، يريدون الشفاعة فأشركوا وكانت النتيجة حرمانهم منها.

إذن هذه أصول أربعة لابد من استحضارها في هذا الموضوع، وَبِه يَستَبِين حال أهل التوحيد وحال أهل الشرك، وتنكشف بتوفيق الله شُبهة أولئك المشركين.

قوله: (**فَالشَّفَاعَةُ المَنفِيَةُ: مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيهِ إلَّا اللهُ**).

الشيخ -كما تقدم- داعية، الشيخ يجالس الناس ويخالطهم ويدعوهم، ويسمع منهم، ويعرف ما يقع من المخالفين للتوحيد، فأراد أن يبين لنا أن الشفاعة التي نُفيت في النصوص هي هذه التي تقع من هؤلاء المشركين، حينما يتوجهون إلى الأموات عند قبورهم، أو بعيدًا عنها، فيسألونهم الشفاعة عند الله سبحانه وتعالى، فقال لنا: هذا الذي ترونه أو تسمعون به، هذا هو ما نُفي من الشفاعة، هذه لا يمكن أن تكون شفاعة، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**مَا كَانَتْ تُطْلَبُ مِنْ غَيرِ اللهِ فِيمَا لا يَقْدِرُ عَلَيهِ إلَّا اللهُ**)، تطلب من غير الله من أولئك الأموات، ومن تلك القبور فيما لا يقدر عليه إلا الله، فالشأن في الشفاعة كله لله سبحانه وتعالى، وهؤلاء الذين دُعوا وهؤلاء الذين استُغيث بهم في شأن الشفاعة استُغِيثوا في شيء لا يقدرون عليه ولا يملكونه،

فأراد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن ينبه إلى هذه القضية المهمة، وهي أن هذه الشفاعة المنفية تتعلق بهؤلاء، ولذلك يُقرِّر أئمة الدعوة في مواضع أن الشفاعة المنفية ما كان فيها شرك، يعني: هي التي يطلبها أولئك المشركون بشركهم بالله سبحانه وتعالى، فلا يحصلون مقصودهم، ولا تكون لهم شفاعة يوم القيامة.

وأُريد أن أشير هنا إلى أن ما ذكَره رَحِمَهُ ٱللَّهُ هو نوعٌ من أنواع الشفاعة المنفية، وثَمَّة أشياء أخرى، لكنَّ الشيخ -كما ذكرت لك- عقَد هذه الرسالة لغرض معين، وهو كما قدمت التنبيه والتحذير لشُبه المخالفين، فمن الشفاعة المنفية ما ذكرتها لكم، وهي الشفاعة الشركية التي تُطلب من غير الله سبحانه وتعالى، فالشفاعة كلها لله، وهي حقٌّ خالص له، وطلبها من غيره شرك.

الأمر الثاني: الشفاعة في الكفار والمشركين، فهؤلاء لا شفاعة فيهم، ﴿**فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ**﴾، ﴿**فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ**﴾.

الأمر الثالث: الشفاعة التي يُظن أنها تكون بلا إذن من الله، فالشافع في ظن الذي يطلب الشفاعة أن له إدلالًا على الله، ومنزلة ومكانة، بحيث أنه يشفع متى شاء فيمن يشاء، وهذا الذي جاء نفيُه في كتاب الله ﷻ في مواضع عديدة، (﴿**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**﴾).

الأمر الرابع: الشفاعة التي هي من جنس الشفاعة الدنيوية، هذه أيضًا شفاعة منفية، أن يظن أن الشفاعة التي تكون عند الله جل وعلا يوم القيامة من جنس الشفاعات الدنيوية، هذا أيضًا منفي غير ثابت، ولا يكون ولا يقع.

فهذه أربعة أنواع من الشّفاعة التي نُفيتْ في النُّصوصِ.

وأُنبّه هنا إلى شُبهة يَدّعيها كثير من أولئك القبوريين في شأن موضوع الشفاعة.

يقولون: ما قلتموه حق، وأنه لا يجوز لأحد أن يسأل شيئًا قد كان حقًا لله جل وعلا وملكًا له، ولكن نحن إنما نسأل الأموات، نسأل النبي عليه الصلاة والسلام أو أحدًا من إخوانه، نسأل السادة والصالحين، نسألهم شيئًا مَلَّكهم الله ﷻ إياه، وعليه فنحن لا نسأل شيئًا هو لله جل وعلا فحسب، إنما الشفاعة لله، ولكنه ملَّكها هؤلاء الشفعاء، فنحن بالتالي نسألهم شيئًا يملكونه!

وهذا كلام باطل، ويتبين بطلانهم من وجوه:

أولًا: أن هؤلاء المشركين يدَّعون أن هؤلاء الشفعاء مالكون للشفاعة.

فنقول: لا شكّ أنّهم في حال الدنيا، في حال السؤال الذي وقع، والاستغاثة التي حصلت، في هذه الحال لم يكونوا مالكين للشفاعة؛ لأنّ الشفاعة موضعها في الآخرة. أمّا في الدنيا فليسوا مالكين لها، إنما يؤذن لهم بها في الآخرة، في الدنيا هؤلاء الأموات وإن كانوا صالحين قد انقطع عملهم، ولا يملكون شيئًا، «**إذا مات ابنُ آدم انقطع عمله إلا من ثلاث** ..»، وهذا ليس منه.

ثانيًا: ليس كل من وُعِد شيئًا في الآخرة جاز سؤاله إيَّاه، فالنبي عليه الصلاة والسلام قد وُعِد المنزلة العالية الرفيعة في الجنة، هل يجوز لأحد أن يأتي إلى قبر النبي ﷺ فيسأله هذه المنزلة؟ ليس له أن يقول ذلك باتفاق المسلمين، إذن ليس كل من وُعد شيئًا في الآخرة جاز لأحد أن يسأله في الدنيا إيَّاه.

ثالثًا: أن نقول: ومن قال لكم إن الشفعاء في الآخرة أيضًا مالكون للشفاعة، إنما هم

مأذون لهم بها، يأذن الله ﷻ لهم بها، بل يأمرهم أن يشفعوا، ومن كان كذلك لم يكون مالكًا.

بدليل: ثبت في «الصحيحين» في حديث الشفاعة الطويل: أن النبي عليه الصلاة والسلام يستأذن على ربه، فيُؤذن له، فيُثنِي على الله ﷻ قائمًا ثناءً طويلًا، يَحمَدُه بمحامد يفتحها عليه سبحانه وتعالى في ذلك المقام، ثم يخِرّ ساجدًا، فيحمد الله ﷻ بمحامد عظيمة، ثم يقول الله ﷻ له: «**يا محمد، ارفَعْ رَأْسَك، وقُلْ يُسمَعْ، وسَلْ تُعطَ، واشفع تُشَفَّعْ**»، هذا يكون في المرة الأولى.

هذا يقع من النبي عليه الصلاة والسلام أربع مرات، يتردد إلى ربه سبحانه، ثم يُحدّ الله له حدًا فيخرجهم من النار، ثم يعود.

وفي المرة الثانية ماذا يقع من النبي عليه الصلاة والسلام؟ يقع كما وقع في المرة الأولى، يُثني على الله ويسجد، فيقول الله «**ارْفَعْ رَأْسَكَ** ... »، أسألكم الآن: أَهَذا فِعل مَن هو مالِكٌ؟ لا والله، لو كان مالكًا لكان مباشرة توجه بالشفاعة؛ لأنه قد أصبح مالكًا لها، لكنه لا يفعل، حتى يأذن الله له بها، بل حتى يأمره الله ﷻ أن يشفع.

في المرة الثالثة يهجم مباشرة على الشفاعة؟ لا، يفعل نفس الفعل، وما هكذا حال المالك للشفاعة.

رابعًا: لو كانت الشفاعة بإذن الله ﷻ تمليكًا للشافع، لَما كان الله ﷻ هو الذي يحدّ له الحد الذي يخرجهم من النار، لو كان مالكًا لها فالمالك يتصرف فيما يملكه بمشيئته؛ لأنه مالك، يعني: ما هي خاصية المِلْكية؟ حرية التصرف، يتصرف كما يشاء، خلاص هو مالك للشفاعة يشفع فيمن يشاء، لكن هل هذا هو الذي يقع، هل هذا هو الذي جاء في النصوص؟

أو أن الله ﷻ هو الذي يَحُدُّ له حدًّا فيخرجهم من النار؟ المرة الأولى يقول له: «**أَخرِج مَن كان في قلبه مِثقالُ شَعيرةٍ من إيمان**»، المرة الثانية: «**مَن كان في قلبه مثقالُ حَبَّةٍ** -أو قال-: **ذَرَّة من إيمان**»، في المرة الثالثة يقول: «**أَخرِج مَن كان في قلبه أَدْنَى أَدْنَى مثقال حَبَّة خَردَل مِن إيمان**»، إذن الله ﷻ هو الذي يَحُدُّ له حدًّا ليخرجهم من النار.

المرة الرابعة يقول: «**ائْذَن لي فيمَن قال: لا إله إلا الله**»، فلا يأذن الله ﷻ له بذلك، بل يخرجهم بمَحْض رحمته سبحانه وتعالى.

إذن هذا دليل على أنه لم يكن مالكًا لها، وسؤالكم هذه الشفاعة سؤال لغير مالك، بل سؤال لشيء لا يملكه إلا الله سبحانه وتعالى.

ولذلك قلت لك في غير هؤلاء الذين يحدهم الله ﷻ له، النبي ﷺ لا يملك لهم شيئًا.

في حديث أبي هريرة الذي قلته لك قبل قليل، ماذا يرد النبي ﷺ لمن قال له أَغِثني؟ «**لا أَملِك لك من الله شيئًا**»، إذن لم يكن مالكًا للشفاعة.

خامسًا -وهذا الذي يقطع كل شبهة تتعلق بهذا الموضوع-: كيف يكون ما ذكرتم حقًا، والله جل وعلا يقول: ﴿**قُلْ لِلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا**﴾، الشفاعة مِلْك لله سبحانه وتعالى، وادّعاء أن أحدًا غير الله ﷻ يملكها هذا هو حقيقة الشرك، والله سبحانه وتعالى أعلم.

الخلاصة: هذه القاعدة فيها رَدٌّ على مَن زعم أن مَن توجه بالعبادة لغير الله ﷻ كحال المشركين في القديم والحديث ليس مشركًا؛ لأنه مجرد طالبٍ للشفاعة، وهذا ليس شركًا، فبين الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن هذا شرك، وأن هذا كحال المشركين الأولين، والله ﷻ أعلم.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

القَاعِدَةُ الثَّالِثَةُ

أَنَّ النَّبِيَ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ، مِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُد الشَّمْسَ والقَمَرَ، ومِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُد الملائِكَةِ، ومِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُد الأنبياءَ والصالحينَ، ومِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُد الأَشْجَارَ والأَحْجَارَ.

وقَاتَلَهُم رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَلَمْ يُفَرِّقْ بَيْنَهُم، وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:39].

فَدَلِيلُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:37].

وَدَلِيلُ الملَائِكَةِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:40-41].

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ﴾ [المائدة:116].

وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلًا * أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:56-57].

وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ

الأُخْرَى﴾ [النجم:19-20].

وحَدِيثُ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُوْلِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ وَنَحْنُ حُدَثَاءَ عَهْدٍ بِكُفْرٍ، وللمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ، يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا، وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُم، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَمَرَرنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ قُلْتُمْ وَالذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿اجْعَل لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف:138]».

قال الشّارح وفّقه الله:

هذه القاعدة الثالثة، وهي أن النبي ﷺ ظَهَر وخرج على أناس متفرقين في عباداتهم، وما فرَّق في الحكم بينهم، بل حكَم عليهم جميعًا -مع اختلاف معبوداتهم واختلاف عباداتهم- حكَم عليهم جميعًا بحكم واحد.

بعد أن بين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن طلب الشفاعة بالتوجه بالعبادة لغير الله هو حقيقة الشرك، **أراد أن يُنبّه على بطلان شُبهة أخرى يدعيها المشركون**، وما أكثر ما يُدندنون حولها، أَلَا وهي زعمهم أن الشرك باطل، ومنكر، ولا يجوز، حتى لو كان لمجرد طلب الشفاعة، ولكن ما هو الشرك؟

الشرك: هو عبادة الأصنام.

ونحن معشر الذين تنكرون علينا لا نعبد الأصنام، نحن لا نتوجه إلى اللات، ولا إلى العُزَّى، ولا إلى بُوذا، إنما نحن نتوجه بالدعاء بالاستغاثة إلى أنبياء وإلى أولياء وإلى صالحين؛ فهذا ليس بشرك.

إذن هذه القاعدة أراد بها الشيخ الرَّد على شبهة مفادها: أن الشرك مخصوص بعبادة الأصنام لا غير.

والتنبّه لهذا من الأهمية بمكان لما قدَّمته لك من أنّ المشركين يُلبِّسون كثيرًا في هذه القضية.

أراد الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بيان بطلان هذه الشبهة بذكر حال المشركين الذين كانوا في السابق، كيف كانوا، وما الذي تعامل به النبي ﷺ معهك؟

قوله: (**أَنَّ النَّبِيَ ﷺ ظَهَرَ عَلَى أُنَاسٍ مُتَفَرِّقِينَ فِي عِبَادَاتِهِمْ**)، ثم ذكَر سبعة معبودات، كانوا في مجموع من هو في ذاك الوقت يتوجهون بالعبادة لهم.

قوله: (**مِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُدُ الشَّمْسَ**)، نعم منهم من كان يعبد الشمس، كما جاء ونُقل في كتب التاريخ عن حِمْيَر قوم بلقيس: أنهم كانوا يعبدون الشمس، فمن العرب من كان يعبد الشمس، وعبادة الشمس باقية في الناس إلى يوم الناس هذا، هناك فئات في هذا العالم اليوم لا يزالون يعبدون الشمس.

قوله: (**والقَمَرَ**)، هناك أناس كانوا يعبدوا القمر، ونُقل في كتب التاريخ أن قبيلة كنانة كان منهم من يعبد القمر، وهذا باقٍ في الناس إلى اليوم، طوائف من المشركين والفلاسفة يعبدون القمر.

قوله: (**ومِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُدُ الملائِكَةِ**)، فالملائكة عُبدت كثيرًا، وكانت عبادتها في العرب كثيرًا، حتى إنهم وصفوها بأن الملائكة بنات الله، من سَرَوَات الجن، يعني: أن الله -تعالى عن قولهم وإفْكِهم- قد صاهر الجن، فوَلَدَت الملائكة، فغَلَوا فيهم، وعَبَدُوهم من دون الله

سبحانه وتعالى.

قوله: (**ومِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُد الأنبياءَ والصالحينَ**)، منهم من يعبد الأنبياء كعيسى عليه السلام، والنصارى معروفون كان النصارى في الروم مشهورين، وكان بعض العرب قد تنصروا أيضًا في جنوب الجزيرة وفي شمالها، في نجران كان هناك نصارى، فجاؤوا إلى النبي عليه الصلاة والسلام، وكان لهم مع النبي عليه الصلاة والسلام ما تعلمون، وكان أيضًا في الشمال، كان كثير مَن تَغلِب كانت على دين النصرانية، متنصرون، فكانوا يعبدون عيسى عليه السلام.

وكذلك كانوا يعبدون أُمَّه، وهذا مثال لعبادة الصالحين.

وسيأتي أيضًا أمثلة لعبادة الصالحين في قوله تعالى: (﴿**أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى**﴾).

قوله: (**و مِنْهُمْ: مَنْ يَعْبُد الأَشْجَارَ والأَحْجَارَ**) كما سيأتي، فالعُزَّى كانت أشجارًا، والأحجار -ليس بخافٍ عنكم- حال المشركين في عبادة الأصنام والتماثيل، وقد كان عند بيت الله ﷻ بل وفي جوفه كثير من الأصنام، بلغت ثلاثمائة وستين صنمًا، يوم فتح النبي ﷺ مكةَ، هذا هو الكبير والمشهور، ويبقى بعد ذلك أن هناك أصنامًا كثيرة حتى لا يكاد يخلو بيتٌ من بيوت المشركين بصنمٍ أو أصنام، وأول شيء يفعله الواحد منهم إذا قَدِم من سفر أن يتمسح بهذا الصنم، وأول شيء وآخر شيء يفعله في بيته هو أيضًا التوجه إلى هذا الصنم.

المقصود: أن عبادة الأشجار والأحجار عندهم شيء كثير جدًا.

ما النتيجة؟ إذا كان النبي ﷺ قد بُعث، والناس الذين بُعث لدعوتهم هذه حالهم، يعبدون أشياء متعددة، ماذا كان من النبي عليه الصلاة والسلام؟ أَفَرَّق بينهم في الحكم، فقال: أنتم

تعبدون أنبياء، وأولياء، وصالحين، ولهم جاه عند الله، أنت لكم حكمٌ خاص، لا بأس بفعلكم، بخلاف الذين عبدوا اللات والعزى ومناة؛ هؤلاء لهم شأن آخر، هؤلاء كفار فقط؟ أَهَكَذا كان منه ﷺ؟ النبي عليه الصلاة والسلام من سُنته وسيرته أنه ما كان يفرق بينهم البتَّة، حكمهم حُكم واحد، كلهم كفار مشركون، مهما كان حال الذي عبدوه، أَكان حيًا أم لم يكن حيًا، أَكان صالحًا، أكان طالحًا، أكان إنسيًا، أكان جنيًا، أكان غير ذلك، كلُّ ذلك ما فرق فيه النبي ﷺ، قاتلهم النبي عليه الصلاة والسلام ولم يفرق بينهم، مع أن هذه المعبودات متعددة.

وثَمَّة أشياء أخرى ما ذكرها الشيخ، المعبودات التي كانت في الناس إبَّان مبعث النبي عليه الصلاة والسلام أكثر من هذا، هناك عبادة للكواكب، ذُكر أن بعض تميم كانت تعبد (الدَّبَران)، وكانت قريش تتوجه أيضًا لـ(الشِّعْرَى)، فلذلك قال الله جل وعلا: ﴿**وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَى**﴾ [النجم:49]، رَدًّا على مقالتهم، وبيانًا لبطلان ما كانوا عليه.

كذلك الجن كان منهم فئام يعبدون الجن، إما رغبة وإما رهبة، ﴿**وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ**﴾ [الجن:6].

وكان في العرب من يعبد النار، ناهيك عمَّن سواهم، ذُكر عن بعض تميم أنهم كانوا يعبدون النار.

فالشاهد: أن المعبودات هذه وغيرها، أشياء كثيرة عُبدت، وكانت سنة النبي عليه الصلاة والسلام وسيرته في هؤلاء جميعًا أن الحكم واحدٌ، كلهم كفار مشركون.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾)

المقصود: أَلَّا تكون الفتنة، **والفتنة**: هي الشرك.

إذن لابد أن نتنبه إلى قاعدة مهمة: (العلة في قضية الشرك: التنديد والتشريك، فلا فرق بين شريك وشريك).

أيّ شريك يُدَّعى، أيّ شريك يُزعم مع الله ﷻ فإنه باطل، والتوجه إليه شرك، مهما كانت حاله، ومهما عَلَتْ أو سَفُلَت منزلته، لأن المقصود ألا تكون فتنة، المقصود: ألا يكون شرك، بغض النظر عن هذا الشريك الذي توجه إليه.

قوله: (دَلِيلُ الشَّمْسِ وَالقَمَرِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾.

وَدَلِيلُ الملَائِكَةِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ * قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ﴾ [سبأ:40-41].

وَدَلِيلُ الأَنْبِيَاءِ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللهِ﴾)، ما يتعلق بعيسى دليل على عبادة الأنبياء، وعبادة أُمّه دليل على عبادة الصالحين.

قوله: (وَدَلِيلُ الصَّالِحِينَ: قَولُهُ تَعَالَى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾).

هؤلاء الذين يدعون، يعني: هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله، والحال أنهم هم يبتغون إلى ربهم الوسيلة، الذين تدعونهم هم يعبدون الله، الذين تعبدونهم هم يعبدون الله، فكيف

تعبدونهم وهم عابدون لله؟ اعبُدوا الذي يعبده هؤلاء الآلهة عندكم.

وهذه الآية فيها قولان للسلف:

منهم من قال: إن المقصود بقوله: (﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:57]) هم الملائكة، والمسيح، وعُزير، كما قال هذا ابن عباس رضي الله عنهما، وتكون الآية على هذا دليلًا على عبادة الملائكة وعلى عبادة الأنبياء، ماذا قال ابن عباس؟ فسَّرها بالملائكة والمسيح وعزير.

والقول الثاني: لابن مسعود رضي الله تعالى عنه: أنّه فسّرها بالجن، وذلك أن أُناسًا من الإنس كانوا يعبدون طائفة من الجن، فأسلم هؤلاء الجن، واستمر أولئك الإنس على عبادتهم، مع كون هؤلاء صاروا عابدين لله وحده لا شريك له.

ومهما يكن من شيء فهذه الآية تصلح دليلًا في عبادة الأنبياء، وفي عبادة الملائكة، وفي عبادة الجن، وفي عبادة غيرهم، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فكل من عَبَد معبودًا له، وهذا المعبود موحِّد عابد صادق في عبادته لله سبحانه وتعالى، كحال كثير ممن يعبدون اليوم عبد القادر الجيلاني، أو يعبدون عليًّا، أو الحسن، أو الحسين، أو فاطمة، أو غيرهم رضي الله عنهم، كل هؤلاء ينطبق عليهم ما جاء في هذه الآية.

قوله: (وَدَلِيلُ الأَشْجَارِ وَالأَحْجَارِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى * وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾)

(**اللَّات**) هذا كان في الطائف، والأصل في قصته أنه رجل صالح، كان يَلُتُّ السويق

للحاج، فلما مات غلا فيه أولئك الجُهال حتى توجهوا إلى قبره، ثم مع تمادي الحال توجهوا إلى الصخرة التي بجوار القبر وكان يجلس عليها، وهذا ما يفسر لك ما جاء في كتب أهل العلم من أنه قبر أو هو صخرة، والصحيح: أن كلاهما عبد، فالقبر الذي دفن فيه، والصخرة هي التي عُظِّمت من بعده، وهي التي كان يجلس عليها.

وأما (**العُزَّى**): فهي ثلاث سَمُرات، شجر السَّمُر كانت بالسَّيل، منطقة السيل معروفة بين مكة والطائف، وبُني على هذه السَّمرات بناءً، ووُضِعت عليها أستار، فعبدت من دون الله جل وعلا.

قوله: (﴿وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الأُخْرَى﴾): هذه أقدم هذه الأصنام الثلاثة المشهورة، فقيل: إنه كان صنما، يعني: تمثالا، وقيل: إنه كان صخرة عظيمة بـ(قَدِيد)، بين مكة والمدينة، وإلى مكة أقرب.

فهاتان الآيتان في (سورة النجم) تصلحان دليلًا لعبادة الأشجار والأحجار، فـ(اللات ومناة) عبادتها كانت من عبادة الأحجار، و(العزى) من عبادة الشجر.

وتصلح أيضًا دليلًا على عبادة الصالحين، وليس يخفى عليكم -يا رعاكم الله- أن عبادة الأصنام والأشجار والأحجار مقصودة لغيرها لا لذاتها، بمعنى: أن أصحابها ما قصدوا ذاتها، وإنما أرادوا أن يكون هذا الصنم، أو أن تكون هذه الشجرة مثالًا يجمعون هِمَّتَهم عليه، ويَتصوَّرون معبودهم فيها، ولرُبما نزلت رَوحانيات هذا المعبود فدخلت فيه، فرَفَعتِ الحاجات إلى الله سبحانه وتعالى بعد سؤاله.

يعني: مَن كان من أولئك يرجع إلى شيء من عقْلٍ، فإنه قد اتخذ هذا الصنم أو هذا

التمثال على مثال مَن كان يعظّمه، كما أخبر الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿**وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا**﴾ [نوح:23]، هؤلاء صالحون، فبَعد وفاتهم نصبوا نُصُبًا لتذكرهم بأولئك الصالحين، هكذا الذين جعلوا أصنامًا للكواكب، جعلوا تماثيلًا للقمر، للشمس وما إلى ذلك، أرادوا به أن تكون مثالًا يجمعون هِمَّتَهم عليه، وإلا فالحجر ليس مقصودًا، إنما المقصود مَن يُمثّله، أو الروحانية التي تقع فيه، ومن كان منهم من جُهَّال وسَفَلَة فإنهم يظنون أن الحجر نفسه هو المقصود، والأمر كما ذكرت لك.

كذلك استدل المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحديث أبي واقد الليثي، في قصة ذات أنواط، وأن من حال المشركين أيضًا أن قلوبهم كانت تتعلق بالشجر، فهذا دليل على عبادة الأشجار.

فالشاهد من ذلك: هو أن النبي عليه الصلاة والسلام ما فرّق في الحكم بين كل هؤلاء، كلهم كفار مشركون مهما كان شأن من يُعبدون في هذه الأمثلة، فالعلة بقضية الشرك التنديد والتشريك فلا فرق بين شريك وشريك، فلو عبد اللات كان شركًا، لو عبد بوذا كان شركًا، لو عبد البدوي كان شركًا، لو عُبد عبد القادر كان هذا شركًا، لو عُبد عيسى كان شركًا، لو عبد حسين كان شركًا، (﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾)، لا يكون شرك، مهما كان من أشرك مع الله ﷻ به، والعلم عند الله سبحانه وتعالى.

قَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ اللَّهُ:

القَاعِدَةُ الرَّابِعَةُ

أَنَّ مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنْ الأَوَّلِينَ؛ لِأَنَّ الأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَةِ، وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَةِ

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [العنكبوت:65])[1].

قال الشّارح وفّقه الله:

هذه القاعدة الرابعة، نبه بها المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ على بطلان شبهة يدعيها القبوريون، ألا وهي: أن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وعليه فما يقع من القبوريين ليس شركًا، ما تدعونه شركًا ممن يقع من أُناس ينتسبون إلى هذه الأمة، أو يقولون: نحن مسلمون، لا يمكن أن يشركوا، كل من قال لا إله إلا الله، ودخل في هذا الدين، وانتسب إليه لا يمكن أن يقع منه شرك، فالشرك لا يقع في هذه الأمة، الشرك نعم صحيح موجود، وجاءت الأدلة فيه كثيرة، ولكنه شيء كان فبانَ، شيء حصل ومضى وانقضى، ولا يتكرر، ولا يقع في هذه الأمة البتة.

كأنّ الذي جاء في نصوص الوحي من بيان الشرك والتحذير منه، والتحقير لحال أهله؛ كل ذلك لا فائدة منه بالنسبة لنا، مجرد يعني ثقافة، نعلم شيئا من الواقع التاريخ، لكن أن نستفيد من ذلك نحن، فنحذر ونتنبه لِئلا تكون عاقبتنا كَعَاقبتهم لا؛ ليس الأمر كذلك، الشرك

---

(1) وعندي هنا زيادة: (فعلى هذا الدَّاعي عابدٌ، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ﴾ [الأحقاف:5]).

لا يقعُ في هذه الأمة، الشرك لا يكون من أحد ينتسب إلى هذه الأمة.

فالشيخ يقول لهم: مَن قال لكم هذا؟ بل الشرك يقع في هذه الأمة، بل يقع شرك أعظم مما وقع في السابق، فالشرك في المتأخرين أغلظ من شرك الأولين، فما ادعيتموه شُبهة داحضة.

ويستدلون على هذا كما ذكرتُ لكم، حجج بينة واضحة، وأدلة راسخة، ومع ذلك يتجاوزونها ولا يقفون عندها، ويتتبعون المتشابهات، فيقولون: النبي ﷺ قال: «**إن الشيطان قد يَئِسَ أن يعبده المشركون في جزيرة العرب**»، إذن الشرك لا يقع في هذه الأمة، وهذا من أسخف الاستدلالات.

الوجه الأول: هل الشيطان معصوم في ظنهم؟ لمَّا رأى هذا الأمر العظيم والفتح الكبير، ودخول الناس في دين الله أفواجًا، دخله اليأس، وظن أنه لا يُعبد في جزيرة العرب.

الوجه الثاني: أن يقول أن يعبده المصلون، فالمصلون حقًا الذين قاموا بهذه الصلاة على الوجه الصحيح هم أهل التوحيد، وأهل التوحيد مُتنبّهون لمداخل الشيطان، وتلبيساته، ولذلك هم بمَأْمَن بتوفيق الله ﷻ من الوقوع في تلبيسه؛ لأنهم أهل يقظة، وأهل علم، فلا يُلبِّس عليهم الشيطان فيقعون في الشرك.

الوجه الثالث: أن هذا الذي ذكروا إنما هو تعلُّق بعبادة الشيطان نفسه، لكن ماذا عن عبادة البدوي وعبادة الحسين؟ هذا شيء لا تعلق للحديث به.

ثم هل هذه الأمة مخصوصة بجزيرة العرب؟ يعني: القوم نظروا نظرًا خاطئًا مخصوصًا، فجعلوه نظرًا عامًا، يعني: نظروا جزئيًا فحكَموا كليًا.

هل أمة محمدٍ ﷺ محصورة في جزيرة العرب؟ لكن ما الحكم الذي قالوا؟ (الأمة لا يقع فيها الشرك)!

فعلى كل حال يعني ثَمَّة أجوبة كثيرة عن هذه الشبهة التي لبَّسوا بها، والوقت لا يُسعف بسَردها.

الشاهد من هذا: أن مشركي زماننا أغلظُ شركًا من الأولين، وفظاعة ما وقعوا فيه أكبر مما وقع فيه أولئك الذين بُعث فيهم النبي ﷺ، فإذا كان قد حكم على أولئك بالشرك، فهؤلاء محكوم عليهم بالشرك من باب أولى؛ لأنّ الحكم يدور ما علته وجودًا وعدمًا، يعني: الأولون إنما حكم عليهم بالكفر والشرك بسبب ما وقع منهم، فهذه هي علة قتالهم وتكفيرهم، إذن كل من وُجدت فيه هذه العلة فحكمه هو حكمهم.

وبيَّن السبب رحمه الله في هذا الذي ذكره، وهو أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين، قال: (**لِأَنَّ الْأَوَّلِينَ يُشْرِكُونَ فِي الرَّخَاءِ وَيُخْلِصُونَ فِي الشِّدَّةِ**)، كما مضى ذلك، وذكرتُ لك ما فيه، والدليل قوله تعالى: ﴿**فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ**﴾ [العنكبوت:65]، فهذا دليل على أنهم إذا ركبوا في الفلك وجاءت الشدة وعظمت المحنة، هاهنا ظل من يدعون إلا إياه سبحانه وتعالى، صاروا لا يدعون إلا الله جل وعلا؛ لأنهم يعرفون ويوقنون أنه لا ينجيهم مما وقعوا فيه إلا الذي بيده كل شيء، ومن هو على كل شيء قدير، فيدعونه وحده دون هذه الآلهة المزعومة.

ماذا عن المشركين المتأخرين؟

أمَّا المشركون المتأخرون فقال: (**وَمُشْرِكُو زَمَانِنَا شِرْكُهُمْ دَائِمٌ فِي الرَّخَاءِ وَالشِّدَّةِ**) في كل

حال.

بل أقول: إنهم ربما في الشدة كانوا أعظم شركًا، وأقول -إن صحَّت العبارة-: كانوا يخلصون الشرك، ولا يعرفون الله، بل لا يقع في قلوبهم أيّ الْتفات إلى الله سبحانه وتعالى، فضلًا أن يقع على السنتهم، نعوذ بالله، ومن خَبَر حالَهم عرف ذلك، أنهم في الشدة كانوا يتوجهون لغير الله سبحانه وتعالى، وربما في الرخاء يتوجهون لله ولغيره، لكن عند الشدة لا يتوجهون إلا لغير الله.

وذكرتُ لبعضكم في مناسبات ماضية ما ذكره الألوسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، عند تفسير قول الله جل وعلا في سورة النحل: ﴿**وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾ [النحل:53].

لاحِظ: ﴿**فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾، ما قال (تجأرون إليه)، تقديم هذا المعمول: ﴿**فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ**﴾، دليل على أنهم يحصرون ويقصرون سؤالهم على الله جل وعلا، لكن ماذا عن المتأخرين؟ الأمر بالعكس.

ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أنه إبَّان شَبابه جاءه أحد المُتمشْيخِين من القبوريين فقال له: (إذا نزلت بك النازلة، وحلَّت بك المصيبة، فإيَّاك أن تدعو الله)، إنا لله وإنا إليه راجعون، أيّ قسوة في قلوب هؤلاء! (إيَّاك أن تدعو الله، فإن الله لا يُهمّه ما نزل بك، ولا يُبالي بك، ولكن ادْعُ الأولياء فإنهم يسارعون إلى إجابتك)، هذا ليس كلام هذا الشخص وحده، إنما هذا لسان مَقال ولسان حال كثير من هؤلاء القبوريين المعاصرين، قلوبهم قد عظُم فيها هؤلاء الأولياء أكثر مما يعظِّمون الله سبحانه وتعالى. فلا يعرفون الله ولا يتوجهون إليه.

وذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره «المنار» قصة حصلت معه، وهو: أن امرأة نزلت بها مصيبة، فكانت تصيح: (يا متبولي، يا متبولي)، وليّ من الأولياء الذين يُعبدون من دون الله جل وعلا، وكانت هذه المرأة تعبده، يقول: فلما هَدَأَ رَوعُها قلتُ لها: لماذا لم تدعي الله ﷻ، ولماذا تدعين المتبولي؟

فقالت بلَهجتها: (المتبولي ميستناش)، يعني: المتبول لا ينتظر، أما الله إذا سألته ...

﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُم مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

هذه حالهم، يظنون بالله غير الحق، يظنون بالله ظن السوء، نعوذ بالله.

فالشاهد: أن الشرك يمكن أن يقع، وما أخطره، وما أقربه في هذا الزمان، الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال كلمة مرَّت بنا سابقًا، وهي: (لَعَلَّ اللهَ أَنْ يُخَلِّصَكَ مِنْ هَذِهِ الشَّبَكَةِ).

واليوم الشبكة في الشبكة، غالبًا شبكة التواصل شبكة تصطاد مَن وقعت عليه، كحال الشبكة التي تصطاد بها، فالغالب أن الفريسة لا تستطيع الهرب، اليوم يُصطاد الناس مع الأسف الشديد، حتى من نشأ على التوحيد، تجد بفعل هذه الشبكة ومواقع التواصل وما إليها، تجد أن كثيرًا من النفوس قد امتلأت بالشُّبه، ودخلت عليهم ألوان من ذرائع الشرك، بلْ من صرائح الشرك.

ومن أسباب الوقوع في هذه الشبكة: قِلَّة العناية بالتوحيد، وقلة العناية ببيانه، والرُّكون إلى دعوى (أنَّنا بحمد الله موحدون، ما حاجتنا إلى أن نتكلّم في التوحيد، ونُدَنـدِن عن التوحيد، والشرك ونحذر)، يا لله العجب!

مِن أسباب الثبات على التوحيد: الكلامُ فيه، والدعوة إليه، والتحذير من ضده، هذا لو

كان المجتمع المسلم -وأنا أتكلم بالعموم- لو كان صافيًا مئة بالمائة لكان ينبغي أن يُكثر من الكلام في التوحيد، وأن يكثر من التحذير من ضده، لأجل أن تبقى هذه السلامة، ويبقى هذا الخير، هذا النبي ﷺ كان يبايع كما في «الصحيحين»، يبايع أصحابه الذين هم أهل التوحيد حقًا، وأعظم الناس توحيدًا بعد الأنبياء، ويقول لهم: «**بايِعُوني على أَلَّا تُشرِكُوا بالله شيئًا**»، فما بالكم بما دونهم؟!

أقول هذا إن كانت المجتمعات المسلمة سليمة مئة بالمئة، فكيف والأمور تُشكى إلى الله سبحانه وتعالى، وقد دخلت الدواخل، وكثرت الشُّبه، واختلطت الأمور، فصار الطفل الصغير يطرح عليك شُبهة تعجب كيف وصلت إليه، والسبب هذا -وأشار الشيخ إلى الجوّال- تجد أنّه يدخل حيثما شاء، ويَعُبُّ مما يشاء، فتدخل إلى سمعه وقلبه شُبه لا حصر لها، سواء تعلقت بالشرك أو تعلقت بغير ذلك من أنواع الكفر، فالكلام عن التوحيد، والكلام عن تفاصيله، والكلام عن الشرك، والكلام عن تفاصيله من الأهمية بمكان يا إخوتاه، لابد من البيان ولابد من التحذير.

أختمُ بأنْ أقولَ: إن الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ ذكر سببًا من الأسباب التي جعلته يقول إن (**مُشْرِكِي زَمَانِنَا أَغْلَظُ شِرْكًا مِنْ الأَوَّلِينَ**)، وذكر هو رَحِمَهُ ٱللَّهُ سببًا آخر لهذا الحكم، ذكره في «كشف الشبهات»، وهو: أن المشركين الأولين كانوا يدعون أُناسًا صالحين، أو على الأقل ليسوا عاصيين؛ كالأشجار والأحجار، أما مشركي زماننا فلربما عبدوا مَن هو مِن أخبث الناس وأكثرهم عصيانًا، وهذا واقع لا شكَّ فيه، اليوم هناك كثير من الناس يعبدون الشيطان، عَبَدة الشيطان كثر، ودخلوا إلى بلاد المسلمين، وإذا لم يكن من شياطين الجنِّ، فلربما عبدوا

أناسًا من شياطين الإنس، مِن أخبث الناس، ويُدَّعى أنه ولي لله، ويكفيك مثالًا على هذا أن تقرأ في ترجمة البدوي الذي الشرك به من أعظم الشرك على وجه الأرض، من أعظم الأوثان التي تعبد من دون الله ﷻ على ظهر الأرض اليوم هو ما يقع عند قبر البدوي من بعض الناس. اقرَأ في ترجمة البدوي إن صَحَّ أنه شخصية حقيقيّة موجودة، ترى عجبًا مِن حاله، ومن فِسقه وخُبثه وقذارته، ومع ذلك هو وليّ الأولياء، بل القُطْب الأوحد عند كثير من الناس.

وأضِف إلى هذا أسبابًا أخرى، من ذلك أيضًا ما قدمته لك: وهو أن مشركي قريش وغيرهم من العرب في السابق كانوا مقرين في الجملة بربوبية الله سبحانه وتعالى كما تقدم، لكن شركهم في الألوهية.

أمَّا المتأخرون فجمعوا الشر من أطرافه، فكانوا مشركين في الألوهية والربوبية، وأنت إذا فتَّشت حالهم وجدت من هذا عجبًا، أن شركهم في الربوبية شرك عظيم جدًا.

وأذكر أني قرأت قصيدة لأحد أعلام هؤلاء المشركين المعاصرين، يمدح فيها النبي عليه الصلاة والسلام، والله ما ترك شاذة ولا فاذة إلا جعلها من النبي عليه الصلاة والسلام، فالذي فَلَق البحر لموسى هو محمد ﷺ ، والذي أخرج الناقة من الصخرة هو محمد ﷺ، والذي قَلَب العصا حَيَّة هو محمد ﷺ، والذي شق القمر هو محمد ﷺ بقدرته ومشيئته، وهَلُمَّ جَرّا، كلُّما مَرَّ بك ويَمُرّ من هذه الأمور كلها مرجعها، هو الذي يسير المراكب في البحار، هو الذي يسهل هذه الدواب لِبَنِي الناس، هو الذي ينزل المطر، وهذا الرجل هو نفسه معدود من كبار الأولياء الذين يُعبدون من دون الله، مع ما فيه من هذا الشرك الذي كان يتورّعُ عنه، ولا يَبْلُغه

أبو جهل وأبو لَهَب وأُمية بن خلف، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وأسأل الله العظيم رب العرش الكريم أنْ يعافني وإياكم من هذه الأهواء، وأنْ يُثبِّتنا على التوحيد، ونعوذ به أنْ نشرك به شيئًا ونحن نعلم، ونستغفره لمَا لا نعلم. ونسأله الثبات على التوحيد، ونسأله الثبات على السنة، يا مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك، ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذْ هديتنا وهبنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على نبينا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.